الباب الأول

# الماضي المشرق

**الفصل الأول:** **ظهور الإسلام ودعوته إلى طلب العلم.**

**الفصل الثاني:** **تاريخ التعلّم عند العرب: المسجد- الكتّاب- المدرسة- المكتبات- الجامعة.**

**الفصل الثالث:** **حركة الترجمة والنقل والإبداع عند العرب.**

**الفصل الرابع:** **خصائص التعليم في عصر الحضارة الإسلامية.**

**الفصل الأول**

# ظهور الإسلام
# ودعوته إلى طلب العلم

كان العرب قبل الإسلام أمّة أمّيّة، وسمّي العصر الذي سبق ظهور الإسلام، العصرَ الجاهليّ، وقد وصف القرآن الكريم ذلك في قوله تعالى: **(هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلاَلٍ مُبِينٍ) [الجمعة: 2]**[1]، ويقول النبيّ محمّد عليه الصلاة والسلام: «نحن أمّة أمّيّة لا نكتب ولا نحسب» (رواه البخاري).

فقد كان جُلّ اهتمام العرب في العلوم، في ذلك الحين، يقتصر على تعلّم الفصاحة والبلاغة في النثر والشعر، وكانت أسواقهم ومجالسهم الشعريّة تنتشر في أنحاء شبه الجزيرة العربيّة، حيث كانوا يتبارون في نظم الشعر وإلقائه، مدحًا وهجاءً وغزلاً ووصفًا، كما أرّخوا به حروبهم وغزواتهم وغيرها من الأحداث المهمّة، وسنّوا به كثيرًا من مكارم الأخلاق، وعُرف عندهم اهتمامٌ قليلٌ بالعلوم والمعارف الأخرى، كعلوم الطبّ والفلك وغيرها. ولم يكن التعلّم معروفًا عندهم إلاّ من طريق الممارسة والمحاكاة والسماع، وحضور المجالس والأسواق.

أمّا ظهور الإسلام، فقد بدأ مع أوّل كلمة نزلت في القرآن الكريم **(اقْرَأْ)**، والتي كانت عنوانًا أوّلاً مميّزًا للعصر القادم، بأنّه عصر الدعوة إلى التعلّم، وليس عصر الحروب والغزوات، أو عصر التنسّك والعبادات (من صلاة وصوم وحجّ)، وليس عصر المال والاقتصاد، أو عصر السياسة ونظام الدولة وغيرها، بل كلّ ذلك مجتمعًا لا يكون إلا تحت راية العلم. وهذا العلم لا يكون إلا باسم الله، جلّ وعلا **(اقْرَأْ بِاسْمِ**

**رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ) [العلق: 1]**، وكلّ علم لا يكون كذلك، فإلى المجهول مآله. **(اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ * الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ * عَلَّمَ الإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ) [العلق: 3–5]**. فالله عزّ وجلّ هو مصدر العلوم كلّها، **(وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا...) [البقرة: 31]**، وكلّ علم يتعلّمه الإنسان، بعد ذلك، يكون بفضلٍ من الله وكرمه. كما إنّ صفة التعلّم عند الإنسان مرتبطة ارتباطًا وثيقًا ومميّزًا بِخَلْقِه، فبالإضافة إلى الآيتين الكريمتين في سورة العلق: **(اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ * خَلَقَ الإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ) [العلق: 1–2]**، تشير الآيات الأولى من سورة الرحمن إلى ذلك في قوله تعالى: **(الرَّحْمَانُ * عَلَّمَ الْقُرْآنَ * خَلَقَ الإِنْسَانَ * عَلَّمَهُ الْبَيَانَ) [الرحمن: 1–4]**، وفي هذه الآيات دليل واضح على أنّ الله تعالى خلق الإنسان ليتعلّم، وليعبد الله عن عِلْم، ولِيَعْمُرَ الأرض التي خُلق عليها، عن علمٍ أيضًا، والله تعالى الذي خَلق الإنسان ليكون خليفةً على الأرض، لا يرضى لهذا الخليفة إلاّ أن يكون متعلّمًا ومتقدّمًا ورائدًا في علمه وفي تعلّمه وتعليمه.

ولذلك، فقد حفل القرآن الكريم بالآيات البيّنات التي تدعو إلى العلم وتحضّ عليه، وتؤكّد رفعةَ أهل العلم: **(... يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ...) [المجادلة: 11]**، كما دعا القرآن الكريم إلى التفكّر والتبصّر والتعقّل في كلّ ما خلق الله تعالى، من آيات كونيّة، وعلوم طبيعيّة، وبما فيها من قوًى وطاقات، ومخلوقات ومجرّات، وعلاقات ومعاملات، **(أَفَلاَ تُبْصِرُونَ)، (أَفَلاَ تَعْقِلُونَ)، (أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ)**... وقد وردت هذه التساؤلات في نهاية العديد من الآيات القرآنية التي تدعو إلى التدبر في خلق الكون وما فيه، ومنها قوله تعالى: **(...وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ) [النحل: 44]**.

بل جعل الله، عزّ وجلّ، التفكّر في كلّ مخلوقاته عبادة، سمّاها العلماء عبادة التفكّر: **(قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُمْ بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَى وَفُرَادَى ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا...) [سبأ: 46]**.

وقد أشار القرآن الكريم إلى عدد كبير من العلوم كالطبّ والفلك والاقتصاد والتاريخ والجغرافية وغيرها، إشاراتٍ علميّةً دقيقةً جدًّا، تقبّلها المسلمون الأوائل كما جاءتْ بلا استفاضةٍ في تحليلها وتفسيرها تفسيرًا علميًّا. وجاء التطوّر العلميّ، مع

مرور الزمن ليثبت دقّتها وصحّتها ودقّة الإشارة إليها، فشكّلت بذلك إعجازًا علميًّا صادقًا دامغًا لكلّ من ألقى السمع وهو شهيد، كما شكّلت، تاليًا، دعوةً صادقةً إلى الله تعالى، قائمةً على أسس علميّة دامغةٍ في عصرٍ سِمَتُهُ العلم والمعرفة.

أمّا الأحاديث النبويّة الشريفة التي دعت إلى التعلّم وحضّت عليه، فهي أيضًا كثيرة جدًّا نذكر منها:

- «طلب العلم فريضة على كلّ مسلم»[2].
- «من جاءه الموت وهو يطلب العلم ليحيي به الإسلام، كان بينه وبين الأنبياء في الجنّة درجة واحدة»[3].
- «من كتم علمًا يعلمه، ألجمه الله يوم القيامة بلجام من نار»[4].
- «اطلبوا العلم ولو في الصين»[5].

ويرى بعض العلماء أنّ العلم يقسم إلى نوعين: علم شرعيّ وعلم دنيويّ. والعلم الشرعيّ، عندهم، هو الذي يعنى بأصول الدين وعلوم التوحيد والفقه وعلوم القرآن الكريم والحديث الشريف، والسيرة النبوية. أمّا العلم الدنيويّ فهو العلم بأمور الدنيا من طبّ وهندسةٍ وفلكٍ واجتماعٍ وعلم نفس الخ... ولكنْ، هل يقوم الدين إلاّ بالدنيا؟! لذلك فقد حضّ الإسلام على العلوم الدنيويّة لأنّها من ضرورات الحياة والمجتمع الإسلاميّ، ولأنّها امتدادٌ للعلم الدينيّ، ورافدةٌ له.

مثلاً فقد أمر الإسلام بالتداوي عند المرض، عملاً بقول النبيّ صلّى الله عليه وسلّم، وعن أبي الدرداء قال: قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: «إنّ الله تعالى أنزل الداء والدواء، وجعل لكلّ داءٍ دواءً، فتداووا، ولا تتداووا بحرام».

فكيف يكون التداوي، بلا إتقانِ علم الطبّ وعلم الصيدلة؟! لذلك، رأى العلماء أنّ العلم الذي لا يُستغنى عنه في قوام أمور الدنيا، هو فرض كفاية، أي إنّه يجب أن يكون في المجتمع الإسلاميّ من يُتقنه، واستشهدوا على ذلك بعلوم الطبّ والفلك والحساب والصناعات وغيرها. وهذه العلوم متعلّقة بالدين بواسطة أمور الدنيا، والدنيا مزرعة الآخرة. لذلك، كانت هذه العلوم متمّمة ومكمّلة لعلوم الدين، وبهما معًا تكون الطريق إلى صراط الله المستقيم.

## الفصل الثاني

# تاريخ التعليم عند العرب

### المسجد- الكتّاب- المدرسة- المكتبات- الجامعة

يُجمع العلماء والباحثون على أنّ تقدّم الأمم ورقيّها وحضارتها كانت، ولا تزال، مرتبطة ارتباطًا وثيقًا بالعلم والمعرفة، كما أن تخلّفها وانحطاطها كان مرتبطًا بالجهل ارتباطًا وطيدًا.

1- **المسجد:** مع ظهور الإسلام ودعوته إلى العلم، كان بديهيًا أن يكون النبيّ محمّد، عليه الصلاة والسلام، أوّلَ معلّم في الإسلام، فقد كان يعلّم أصحابه القرآن الكريم، مع بدء التنزيل، في دار الأرقم ابن أبي الأرقم، في مكّة المكرّمة، كما يعلّمهم أمور دينهم. وعندما انتقل إلى المدينة المنوّرة، كان يجلس في مسجده ليعلّم الصحابة أصول الدين الإسلاميّ وبناء الدولة الإسلاميّة. وكانت صلاة الجمعة، في جماعة، في المسجد، مع خطبة الجمعة، اجتماعًا عامًّا للمسلمين، ليتدارسوا فيه أمر دينهم ودنياهم. يقول ابن قيّم الجوزية رحمه الله: «ومن تأمّل خُطَبَ النبيّ، صلّى الله عليه وسلّم، وخُطَبَ أصحابه، وجدها كفيلة ببيان الهدى والتوحيد، وذِكْر صفات الربّ جلّ جلاله، وأصول الإيمان الكلّيّة، والدعوة إلى الله، والأمر بذكره وشكره الذي يحبّبهم إليه، فيذكرون من عظمة الله وصفاته وأسمائه ما يحببه إلى خلقه ويأمرون بطاعته وشكره وذكر ما يحبّبهم إليه»[6].

تجدر الإشارة إلى أنّ هذا التعليم، في عصر رسول الله، صلّى الله عليه وسلّم، كان تعليمًا منفحتًا ومستمرًّا، لأنّه كان تعليمًا للناس جميعًا وليس تعليمًا

نخبويًّا فليس خاصًّا بجنس دون آخر، ولا بفئة دون أخرى، ولم تكن هناك حجب بين المعلّم والمتعلّم، وكان تعليمًا مستمرًا لأنه استغرق حياة الرسول منذ البعثة حتى وفاته، وهو الذي يقول عن نفسه: «إنما بعثت معلّمًا» (ابن ماجه) فتبليغ الدعوة الإسلاميّة يؤدّى من طريق عمليّة تعليميّة، يتلازم فيها القول والعمل معًا[7].

كما كان النبيّ، عليه الصلاة والسلام، قدوةً وأسوة للناس في دعوته وتعليمه، وفي تطبيقه ما أمره الله وأمر المسلمين به: **(لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ...)** [الأحزاب: 21].

ولقد أُمر الرسول، عليه الصلاة والسلام، بالتبليغ والبيان معًا، فلم يستغنِ عن أحدهما بالآخر، ذلك أنّ التعليم بتبليغ الناس ما أنزل إليهم لا يُجْدِي نفعًا، إذا لم يتبيّن للمبلَّغ المرادُ منه، بل لا بدّ من بيان ما أُمر بتبليغه وما عليه فِعْلُه وتوضيحهما. وقد بلغ من حرصه عليه السلام على العلم والتعليم عمومًا (وليس العلم الشرعي فحسب) أن جعل فداء كلّ أسير من المشركين في معركة بدر، القيام بتعليم القراءة والكتابة لعشرة من أبناء المدينة.

واستمرّ الصحابة، رضوان الله عليهم، بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم في تعليم الناس أمورَ دينهم في المسجد، وزادوا على ذلك حلقات علميّةً متخصّصة؛ وكان طالب العلم يحضر حلقة أستاذه، وعندما يستكمل البرنامج الذي أعدّه له شيخه وينجح فيه، يجيزه الشيخ، ويسمح له بتدريس القسم الذي تعلّمه وبرع فيه، في حلقة مستقلّة في المسجد، وكان العلماء في المساجد لا يتقاضون أجرًا، وإنما يبتغون أجرهم من الله.

ولمّا توسّعت الفتوحات الإسلاميّة وشملت أممًا لا تتكلّم باللغة العربيّة، أقبلت هذه الأمم على تعلّم اللغة العربيّة، لأنّها لغة القرآن الكريم ولغة الخطاب الشرعيّ. وانتشر الدعاة في مختلف الأمصار، يعلّمون الناس في المساجد أمور دينهم، كما يعلّمونهم اللغة العربيّة أيضًا. وبدأت اللغة العربية تُكتسب من غير العرب، من طريق التعلّم والتعليم. ومع اتساع قاعدة الناطقين باللغة العربية، زاد عدد العلماء والباحثين من غير العرب، فاكتسبت اللغة العربية صبغة

العالمية، وانتشرت انتشارًا واسعًا غير مسبوق في البلاد المجاورة أولاً، التي دخلها الدين الإسلامي. ومع توسع الفتوحات الإسلامية، زاد انتشار اللغة العربية، وانطلق العلماء المسلمون من غير العرب في إبداعهم في العلوم الشرعية، كما في العلوم الأخرى من رياضيات وكيمياء وفيزياء، وطب وهندسة وفلك وغيرها...

وفي العصر الأمويّ، حافظ التعليم على الطريقة نفسها، كما يذكر أبو عمر الكلبيّ عن المسجد الجامع الذي بناه الأمويّون في دمشق، وكثرة علمائه، حيث يقول: «عهد المسجد الجامع، بدمشق، وإنّ عند كلّ عمودٍ شيخًا، وعليه الناس يكتبون العلم». وقد شهد العصر الأمويّ نهضةً لغويّةً وأدبيّةً، كان لها أثرها في حفظ اللغة وتدوينها وتعليمها. كما حافظ الخلفاء الأمويّون على الصبغة والثقافة العربيّتين، «فنشّأوا أبناءهم بالبادية، يتعلّمون فيها الشعر والأدب واللغة، ويكتسبون المَلَكَةَ والفطرة والطبع، ويعقدون المجالس الأدبية، ويستدعون الرُواة والأدباء والشعراء»[8].

2- **الكتّاب**: ومع التوسّع في تعليم الصبيان والأولاد القراءة والكتابة وتحفيظ القرآن، ظهرت الكتاتيب في أماكن متخصّصة في ذلك، وكانت ملحقة بالمسجد أو قريبة منه، وأحيانًا في بعض المنازل أو أطراف الأسواق، وسمّي القائم بذلك معلّمًا. كما أنشأ الخلفاء والأمراء كتاتيبَ خاصّةً في قصورهم، لتعليم أبنائهم وصبيانهم. وغالبًا ما يكون المشرف على هذه المهمّة مقيمًا في القصر، حتى يصرف عنايته كلّها إلى التعليم والتأديب، وسمّي القائم بذلك مؤدّبًا، وكان يقضي فترةً أطول مع أبناء الخليفة أو الأمير، ويقوم هذا الأخير بوضع المنهاج التعليميّ الذي يريده لأولاده.

كما اتّخذ الخلفاء، في العصر الأمويّ، بلاطًا لهم يَدعونَ إليه العلماءَ والأدباءَ وأهلَ السير والعالِمين بالتاريخ العربيّ، وتاريخ الأمم الأخرى. وكانت هذه البلاطات، أيضًا، مكانًا لتعليم الأدب والشعر والتاريخ وغيره، حيث كانت تُشهد مبارزاتٌ علميّة قيّمة.

3- **حوانيت الورّاقين**: كان **لحوانيت الورّاقين** والعلماء، أثرٌ كبيرٌ في التعليم

وتنشيط الحركة العلميّة في المجتمع الإسلاميّ، وكان معظم الورّاقين من كبار العلماء، إذ كانوا يقومون بعمليّة النسخ والتصحيح والتجليد، وتقديم هذه الكتب لطلاّبهم كمراجعَ يستفيدون منها في طلب العلم.

وقد ترافق ذلك مع تمسّك قلّة من العلماء باتّخاذ منازلهم موضعًا لنشر العلم وتعليمه للناس، وكان ذلك للضرورة فقط.

أمّا العصر العباسي، فقد عُرف بالعصر الذهبيّ للعلم والتعليم، في التاريخ الإسلاميّ. فقد ازدهرت الحركة العلميّة ازدهارًا كبيرًا، وأصبح معها المجتمع الإسلاميّ ملتقًى لمختلف العلوم؛ فبالإضافة إلى العلوم الشرعيّة وعلوم اللغة العربية وآدابها، شهدت العلوم الأخرى، من طبّ وهندسة وكيمياء وفيزياء والعلوم الطبيعية الأخرى وعلوم الرياضيّات والفلسفة وغيرها، تطوّرًا ملحوظًا وإضافاتٍ قيّمةً، وعلومًا مُستَحدَثة.

وبذلك، ترك العلماء العرب والمسلمون بصماتهم على مسار العلم والمعرفة والحضارة الإنسانيّة، على مرّ التاريخ والزمان.

4- **المدارس**: ظهرت المدارس في العصر العباسيّ، وأصبحت مكانًا مهمًّا للتعليم، فانتشرت انتشارًا سريعًا، فبنيت في كلّ مدينة مدرسة، وفي المدن الكبرى عدّة مدارس، وكان أوّلها المدرسة النظاميّة التي أنشأها الوزير «نظام الملك»، في عام 459 هجري (1069 م) في عهد السلطان السلجوقيّ «ألب أرسلان»، في مدينة بغداد.

ويعزو بعض المؤرّخين سبب ظهور المدارس، في هذا الزمن، إلى الحركات الباطنيّة التي بدأت تنشط نشاطًا واسعًا، وأنّ الوزير نظام المُلك رأى أنّ مقاومتها سياسيًّا لا تكفي، ولن يكتب لها النجاح إلا إذا ترافقت المقاومةُ السياسيّةُ مع مقاومةٍ فكريّة، فسعى لتأسيس هذه المقاومة الفكريّة ونَشْرِها من خلال هذه المدارس النظاميّة.

كما أراد أن يُعدّ فيها شبابًا مسلّحًا بالعلم والمعرفة، لتولّي مناصب الدولة، وخاصّة في مجالات التدريس والقضاء والإفتاء وغيرها[9].

وانتشرت هذه المدارس انتشارًا واسعًا في مختلف أصقاع الدولة، فكانت

المدرسة الظاهريّة، والمدرسة الصالحيّة في مصر، والمدرسة السعوديّة في بغداد، والمدرسة الصلاحيّة في حلب، والمدرسة الغياثيّة في مكّة المكرّمة، والمدرسة المستنصريّة في بغداد، ومدرسة الزيتونة في تونس، ومدرسة السلطان حسن والجامع الأزهر في مصر، وغير ذلك كثير. وكان الطلاّب يلتحقون بهذه المدارس بعد أن يتخرّجوا من الكتاتيب، ويدرسون فيها، بالإضافة إلى العلوم الدينية، علومَ الأدب والكيمياء والرياضيّات والتاريخ وغيرها. وكان الطالب يتخصّص في أحد الفروع. وقد تخرّج من هذه المدارس عدد كبير من العلماء المعروفين أمثال الخوارزمي، وجابر بن حيّان والرازي وغيرهم. ولم يخلُ فرع من فروع العلم والمعرفة من البحث والتوسّع والتطوير، فكثُرت المؤلّفات وتفرّعت العلوم وانتشرت في أصقاع الأرض.

وكانت هذه المدارس تسمّى المدارس الوقفيّة لأنّها تعتمد على الأوقاف، من حيثُ الإنشاءُ والإنفاق عليها، وكان الطّلاب والمعلّمون يتقاضون رواتب شهريّة ليتفرّغوا للعلم. [ملحق1- الأوقاف على التعليم]

وقد تأثّر الرحّالة الأندلسيّ ابن جبير بكثرة هذا المدارس والأوقاف المخصّصة لها، فدعا المغاربةَ إلى أن يرحلوا إلى بلاد الشرق لتلقّي العلم.

وفي بلاد المغرب، - في عهد المرابطين- وبعد ثلاث سنوات من تأسيس المدرسة النظاميّة (ببغداد)، عرفت فاس مدارس احتضنت الطلبة الذين يأتون بقصد الدرس، من سائر أطراف البلاد، تحاكي تلك المدارس ما اصطلحوا اليوم على تسميته بالأحياء الجامعية. بل إن فكرة المدرسة تجاوزت فاس إلى الجنوب، إلى السوس الأقصى، حيث كانت المدرسة التي بناها وجاج بن زلو...

وفي عهد الموحّدين، أصحاب «مملكة الطلبة»، ازدهرت المعارف بما أنشأوا من معاهد ومدارس في أفريقيا والأندلس... وقد وصل عدد مدارسهم إلى ثمانمئة مدرسة في أرجاء فاس...

وبقي التعليم، في تلك الحقبة من الزمن، مفتوحًا للجميع، والحضورُ فيه غيرَ منظَّم، فلا أحد يُلْزَمُ بذلك، إلاّ ما كان من بعض الأفراد الذين

يُلزِمون أنفسهم بحضور مجلس شيخ أو عالم أو محدّث.
وقد ترافق هذا التطور العلميّ، مع ظهور الفرق الكلاميّة والمذاهب الفقهيّة، وأدّى ذلك كلّه إلى وجود صراعات فكريّة وعقديّة ومناظرات فقهيّة، مما جعل أصحاب كلّ فرقة ومذهب حريصين على تكوين ثلّة من أتباعهم، لتحصين فرقتهم ومذهبهم من مناوئيهم. وهذا التكوين الخاصّ بفئة معيّنة من المتعلّمين، والمتميّز بالحضور الملزِم، لم يكن له موضع لتطبيقه إلاّ في المدارس.

5- **المكتبات**: ومع تطوّر حركة الترجمة والنقل، أدرك خلفاء المسلمين وأمراؤهم أهميّة الكتب في نشر العلم، فبادروا إلى إنشاء المكتبات داخل قصورهم، وجلبوا إليها مختلف الكتب ونفائسَها...
ولمّا لم يكن من اليسير على الطلبة كلّهم استخدامُ هذه المكتبات، تمّ إنشاء مكتبات عموميّة، حيث يتمكّن الجميع من استخدامها. وهذه المكتبات، غالبًا ما تكون تابعة للمساجد أو المدارس ووقفًا عليها، فلا يكاد يخلو مسجد من مكتبة تابعة له. كما لم تخلُ مدرسة من وجود مكتبة تتبعها، مزودة مجموعةً من الكتب. وقد أوقف المحسنون، من أغنياء المسلمين، العديد من المكتبات لمصلحة طلبة العلم، حتى إنّ الإمام ابن حبّان، رحمه الله، جعل من بيته مكتبة يأوي إليها طلبة العلم، وكلّ من كانت له رغبة في الاستفادة مما حوته.
وكانت هذه المكتبات تسمى تارة **دار الكتب** وتارة **خزانة الحكمة**، وهي عبارة عن خزانة كتب عادية. ولكن، مع مرور الزمن، بدأت هذه المكتبات تمثّل دورًا كبيرًا في نشر العلوم وتقدّمها. فقد كانت تعقد فيها **مجالس العلم** التي يحضرها كبار العلماء ويناقشون فيها مختلف القضايا، ويتنافسون بينهم لإثبات قدراتهم العلمية حتى ينتشر صيتهم، فيحصلوا على ثقة الخلفاء وأُعطياتهم.
«ونمت دور الكتب، في كلّ مكان، نموّ العشب في الأرض الطيّبة. ففي عام 891م يحصي مسافر عدد دور الكتب العامّة في بغداد بأكثر من مئة. وبدأت كلُّ مدينة تبني لها دارًا للكتب، يستطيع عمرو أو زيد من الناس استعارةَ ما يشاء منها، وأن يجلس في قاعات المطالعة ليقرأ ما يريد؛ كما يجتمع

فيها المترجمون والمؤلّفون، في قاعات خصّصت لهم، يتجادلون ويتناقشون كما يحدث اليوم في أرقى الأندية العلميّة.

فمكتبة صغيرة، كمكتبة النجف في العراق، كانت تحوي في القرن العاشر أربعين ألف مجلّد، بينما لم تحوِ أديرة الغرب سوى اثني عشر كتابًا رُبِطتْ بالسلاسل خشيةَ ضياعها. ويحتاج تصنيف الكتب الموجودة في مدينة الريّ إلى عشرة فهارس كبيرة. وكان لكلّ مسجد مكتبته الخاصّة، بل كان لكلّ مستشفى، يستقبل زوّاره، قاعة فسيحة صُفّت على رفوفها الكتب الطبيّة الحديثة الصدور، تباع لتكون مادّة لدراسة الطلاّب ومرجِعًا للأطباء، يقفون منه على آخر ما وصل إليه العلم الحديث. ولقد جمع ناصر الدين الطوسي لمرصده في مراغة 400,000 مخطوطة.

وحذا حذوَ الخليفة، في بغداد، كلّ الأمراء العرب، في مختلف أنحاء العالم العربيّ؛ فأربت، مثلاً، مكتبة أمير عربيّ في الجنوب على 100,000 مجلّد. وروي أنه لما شفي سلطان بخارى، محمّد المنصور، من مرضه العضال، على يد ابن سينا، وهو بعد فتًى لم يتجاوز الثامنةَ عشرةَ، كافأه السلطان، على ذلك، بأن سمح له أن يختار من مكتبة قصره ما يحتاج إليه من الكتب لدراسته، وكانت كتبها تشغل جزءًا كبيرًا من القصر، وقد رُتِّبَتْ حسب موضوعاتها. ويكتب ابن سينا عن ذلك الحدث فيقول: «وهناك رأيت كتبًا لم يسمع أغلب الناس حتى بأسمائها».

ولا يستطيع أحد أن يقارن نفسه بالخليفة العزيز، في القاهرة. حتى خليفة قرطبة، الذي بعث رجاله وسماسرته في كلّ أنحاء الشرق ليجلبوا له الكتب، فيزيد روائع مكتبته، أنّى له أن يصل إلى ما فعله العزيز؟! لقد حَوَتْ مكتبةُ العزيز 1,600,000 مجلّد، فكانت بذلك أجمل دارٍ للكتب وأكملها، ضمّت 6500 مخطوطة في الرياضيّات و18000 مخطوطة في الفلسفة، ولم يمنع هذا قطّ ابنه من بعد، حين اعتلى العرش، من أن يبني مكتبة ضخمة، فيها ثماني عشرة قاعة للمطالعة إلى جوار المكتبة القديمة.

وكذلك فعل الوزراء ورجال الدولة، فلقد ترك الوزير المهلّبي، مثلاً، عند وفاته

عام 963م مجموعة من 117,000 مجلد، واستطاع زميله الشاب ابن عبّاد أن يجمع في مكتبته 206,000 كتاب، وجمع أحد قضاته 1,050,000 مجلد. ولما كانت هذه الأرقام الضخمة قد حسبت بالتقريب، وبولغ في بعضها، وأكبر دليل على هذا ما نقرأه من أنّ بعض الوزراء لم يكن يخرج إلى رحلة إلا ومعه حمولة ثلاثين جملاً من الكتب تصحب ركبه»[10].

6- **نسخ الكتب والرغبة في اقتنائها:** الكتب لم تكن مطبوعة على آلة، بل نُسخت باليد، وبذل فيها كاتبوها مجهودًا مضنيًا، دام أشهرًا طويلة، بل وأحيانًا بضع سنوات. ولم تكن تلك الكتب رخيصة الثمن، فقد تقاضى ابن الهيثم مثلاً 75 درهمًا أجرًا لنسخ مجلد من مجلدات أقليدس، وهو مبلغ لا يستهان به، عاش به ابن الهيثم ستة أشهر. ولقد ترك ابن الجزّار، الطبيب والرحّالة القيرواني، عند وفاته، ما يعادل 250 طنًا من لفائف جلد الغزال التي كتبها بنفسه. ويحكى أنّ طبيبًا آخر- ولم يكن أحد في ذلك العصر يشكّ في صدق هذه الرواية- لم يستطع أن يقبل دعوة سلطان بخارى لزيارة قصره، لأنّه كان مشغولاً بتحميل 400 جمل لنقل مكتبته التي بلغ وزن كتبها ما يعادل 10,000 كليوغرام إلى مسكنه الجديد. وعرف الناس، عند وفاة أحد العلماء، أنّه قد ترك 600 صندوق متخم بالكتب، في كلّ فروع العلم، وأنّ كلّ صندوق منها بلغ من الثقل حدًّا جعل عددًا من الرجال يعجزون عن نقله إلى خارج المنزل.

لم يكن المرء ليُحسب من الأثرياء ما لم يكن يملك مجموعة من الكتب النفيسة النادرة. وقد روى الحضرمي حادثًا طريفًا أغضبه، وقع له في سوق باعة الكتب قال:

«أقمت مرّة بقرطبة، ولازمت سوق كتبها مدّة أترقب فيه وقوع كتاب كان لي بطلبه اعتناء، إلى أن وقع، وهو بخطّ جيّد، ففرحت به أشدّ الفرح، وجعلت أزيد في ثمنه، فيرجع إليّ المنادي بالزيادة عليّ، إلى أن بلغ فوق حدّه، فقلت له:

- يا هذا، أربني مَن يزيد في هذا الكتاب، حتى بلّغه ما لا يساوي؟! قال:

فأراني شخصًا عليه لباس رياسة، فدنوت منه وقلت له:

- أعزّ الله سيّدنا، إن كان لك غرض في هذا الكتاب تركته لك، فقد بَلَغَتْ به الزيادةُ بيننا فوق حدّه.

فقال لي:

- لا أدري ما فيه، ولكنّني أقمت خزانة كتب واحتفلت فيها لأتجمّل بها بين أعيان البلد، وبقي فيها موضعٌ يَسَعُ هذا الكتاب. فلمّا رأيته حسنَ الخطّ، جيّدَ التجليد، استحسنته، ولم أبالِ بما أزيد فيه، والحمد لله على ما أنعم به من الرزق فهو كثير.

فقلت لنفسي:

- نعم، إن أمثال هذا الرجل، يملكون ثمن الغالي من الكتب. لك حكمتك يا ربي، تعطي البندق لمن لا نواجذ له».

ولمّا كان عدد أصِحّاء الأسنان يتزايد فقد ظلّت أسعار الكتب على ارتفاعها، لا لعام أو عشرة بل لمئات السنين، ودُفِعَتْ ثمنًا للكتب، كلّ عامٍ، ملايينُ وملايين. فلقد خصّصت مكتبة «النظامية»، وهي المدرسة العليا الشهيرة ببغداد، سنويًا، ما يعادل مليونًا ونصفًا من الفرنكات الذهبيّة لشراء الكتب والمخطوطات.

وفَتَحَتِ اللهفةُ، على اقتناء الكتب، البابَ أمام مئات الألوف من البشر لكسب عيشهم، فأصبح النسّاخ والخطّاطون فنانين مَهَرَة في فنّهم، ووظّفت كلّ مكتبة أو متجر للكتب، عددًا من هؤلاء، وكان أغلبهم من الطلبة، أو أنصاف المتعلّمين، الذين أرادوا من هذا الطريق كسبَ رزقهم.

وانتشر منتجو الورق بطواحينهم في سمرقند وبغداد ودمشق وطرابلس، وفي فلسطين والأندلس، وتبعهم المجلّدون، متأثّرين بفنّ التجليد الصينيّ، يعدّون غلافات رائعة للكتب.

ففي سوق الكتب، عند بوّابة البصرة ببغداد، التي كانت تضمّ أكثر من مئة متجر، كان المتعلّمون، من كلّ أنحاء العالم الإسلاميّ، يجتمعون. هنا يفتّش

الفيلسوف والشاعر والفلكيّ عمّا صدر حديثًا من الكتب، وهناك ينقّب الطبيب والمؤرّخ وجامع الكتب عن النسخ القديمة، وهنا وهنالك يتناقشون جميعًا ويتبادلون المعرفة أو تقرأ عليهم برمّتهم مقتطفات ممّا كُتب.

وحوالي عام 1000م يصدر كتاب بعنوان «تبادل الأفكار» يحوي 106 مناقشات دارت بين العلماء، بعضها في منزل فيلسوف عربيّ، وبعضها في حوانيت تجّار الكتب. (لعلّ المقصود هنا، هو كتاب «المقابسات» لأبي حيّان التوحيدي)»[11].

كما أنّ دور الخلفاء والأمراء، في تقريب العلماء والباحثين والمترجمين، وعطاءاتهم الوافرة لهم، شكّلت سندًا كبيرًا وحافزًا مهمًّا في مواصلة النشاطات العلميّة التي كانوا يقومون بها، فبالإضافة إلى ما تقدّم ذكره، في إقامة الكتاتيب في القصور، واستقدام أمهر المعلمين لتعليم الأولاد، وإقامة المدارس والمكتبات، كانت تقام مجالس العلم المتخصّصة في القصور والبلاطات، ويدعى إليها أمهر العلماء وأوسعهم شهرةً وصيتًا، وتُقدّمُ لهم الأعطيات الثمينة والهدايا الفاخرة.

7- **الجامعات**: لم تقتصر هذه النهضة العلميّة والتعليميّة على بلاد المشرق العربيّ، بل انتقلت إلى المغرب العربيّ بواسطة الرحّالة والباحثين، الذين كانوا يفدون إلى بلاد الشرق، ويعودون إلى بلادهم مزوَّدين بما رأوه وشاهدوه. فقامت في بلاد المغرب نهضة مماثلة، سرعان ما انتقلت، بدورها، إلى بلاد الأندلس، ومنها إلى العمق الأوروبيّ.

**جامعة القرويين**: تجدر الإشارة إلى أن لفظ الجامعة University كان اصطلاحًا قديمًا يطلقه الأوروبيون على ما يبدو اليوم بالرابطة أو النقابة، ثم انحصر الاصطلاح، مع الأيّام، ليقتصر على اتحادات المشتغلين بالعلم والتعليم من أساتذة وطلاب، أي إنّ «كلمة جامعة- للمؤسّسة التعليميّة- تعدّ من المصطلحات المعاصرة، إذ إنّ مثل هذه المؤسّسات التعليميّة كان يطلق عليها، في العهود الإسلامية القديمة: المسجد الجامع، الذي يجمع المصلّين والمعلّمين. وعليه قالوا: جامع بغداد، والجامع الأمويّ، وجامع الأزهر، وجامع الزيتونة، وجامع القرويّين... أمّا المسجد، فهو مكان الصلاة في الغالب، وقد تُلقى

فيه بعض الدروس، مثل المسجد الحرام، والمسجد النبويّ والمسجد الأقصى... فمن هنا، كان جامع القرويين، وقتذاك، هو جامعة القرويين، إذ فيه تُدرّس العلوم الشرعيّة والاجتماعيّة، فكان يدرّس فيه ابن خلدون وابن رشد (الجدّ) وغيرهما، ويطلق اليوم على جامع القرويين، جامعة القرويين نظرًا إلى وجود كليّات تابعة لها، في فاس ومراكش وبعض المدن المغربيّة الأخرى[12]. وفي المغرب العربيّ، قامت جامعة القرويّين التي تحمل لقب أقدم جامعة في التاريخ، وقد بُنيتْ كمؤسّسة تعليميّة لجامع القرويّين الذي قامت ببنائه السّيدة فاطمة بنت محمّد الفهري، عام 245 هـ الموافق لعام 859 م[13]، وقد ذكرت موسوعة غينيس للأرقام القياسيّة أنّ هذه الجامعة هي أقدم جامعة في العالم، ولا زالت تُدرِّس حتى اليوم.

ويذكر المؤرّخ الدكتور عبد الهادي التازي- الذي خصّص أطروحته لنيل الدكتوراه عن جامعة القرويّين، من حيث بناؤها العمرانيّ وأدوارها الفكريّة والعلميّة- أنّ «حفرَ أساس مسجد القرويين، والأخذَ في أمر بنائه الأوّل كان بمطالعة العاهل الإدريسي يحيي الأوّل، وأن أمّ البنين فاطمة الفهرية، هي التي تطوّعت ببنائه، وظلّت صائمة محتبسة إلى أن انتهت أعمال البناء، وصلّت في المسجد شكرًا لله» (ولعل في ذلك إشارة بالغة إلى الأدوار المهمّة التي أدّتها المرأة عمومًا في تاريخ الحضارة والعلوم الإسلاميّة).

وقد جعلت هذه الجامعة مدينة فاس معلمًا علميًّا دينيًّا ومنارة مشعّةً في الغرب الإسلاميّ، حتى قيل عنها: «إنّ العلم كان ينبع من صدور أهلها، كما ينبع الماء من حيطانها، (أو من أرضها- في قول آخر)[14].

وقيل عنها أيضًا: «وُلد العلم بالمدينة، ورُبّي بمكة، وطحن بمصر، وغُربل في فاس»[15].

وذكر دلفان في كتابه: «حول فاس وجامعتها والتعليم العالي بها» المطبوع سنة 1889. أن فاس هي دار العلم، وأنّ القرويين هي أوّل مدرسة في الدنيا»[16].

وقد سمّيت القرويين بالجامعة، لأنّها كانت مكانًا تلقى فيه دروسٌ للجميع، من طلابٍ وحِرَفيّين، كما تلقى فيها المحاضرات العامّة التي يحضرها الجميع، من رجالٍ ونساءٍ وأطفال. كما تقام فيها حلقاتٌ علميّة، منها ذات الأستاذ الواحد، ومنها ذات

الأستاذين، وكانت منها الحلقات الخاصّة التي لا يحضرها إلا المعمّمون. وقد عَرَفَتِ الجامعة نظامًا دقيقًا في أيّام دراستها وعطلها، وبرامجها التعليميّة، للعامّة والخاصّة.

وجامعة القرويين هي وحدَها التي عُرفت منذ تاريخ قديم بعادة تنصيب سلطان للطلبة ربيعَ كلّ عام: يمتطي الجواد الأميريّ، وترفع فوق رأسه مظلّة السلاطين، ويأمر بتأليف حكومة له من بين زملائه، ويزوره عاهل البلاد في يوم مشهود من أيام سلطنته التي تدوم زهاء الأسبوع!

وإذا كانت فاس قد عُرفت أنّها (كرسيّ المملكة)، فلأنّ جامع القرويّين، بما يتبعه من مئات الفروع المنبثّة في أرجاء المدينة، عاد يتوافر- في فترة من الفترات- على مئة وأربعين كرسيًّا علميًّا، يغشاها الناس من مختلف الطبقات، وعاد من المألوف والمعهود أنّ على الطلبة، من غير فاس، أن يقصدوا القرويّين إذا كانوا يريدون لصيتهم أن يعلو، ولعلمهم أن يذكر.

وقد ضمّت رفوف خزانتها العلميّة الكبرى ومكتبتها الأحمديّة، من عيون المخطوطات ونوادر الموضوعات ونفائس العلوم، ما كان حديث المجالس في ذلك الوقت، وردّدته مختلف المستندات وحجج الوقف، ممّا يعطي فكرة عن الموادّ المدروسة والكتب المستعملة، وقد ازدهرت الحياة الفكريّة بها حتى عُقِدَتْ سوقٌ أسبوعيّة بالمزاد العلنيّ للمخطوطات، في الجانب الشرقيّ الغربيّ من الجامع، وحتى أنشئ ثلاثة وثلاثون فرعًا للخزانة، بعدد المساجد الصغرى التي كانت تابعة للقرويّين...

وقد شيّدت، إلى جانب القرويّين، طائفة من المدارس الداخليّة لاستقبال الطلاب، توافرت على عدد من قاعات الدروس، وقد طرّزت ووشّيت بروائع الفسيفساء، وغدت لوحات فنّية تسحر الناظرين، ممّا جعل المختصّين ينعتون إحداها بأعجوبة فاس.

آوت مدينة فاس آلاف الأسر من مختلف الجهات المغربيّة، وإليها يرجع الفضل في تجمّع أكبر عدد من العشائر والقبائل والمدن المتباعدة، بل إنّها أغرت طائفة كبرى من الأندلسيّين والإفريقيّين؛ ولاقوا، إلى جانب هؤلاء وأولئك، نفرًا من الفرس والكرد والعجم ولاقوا ضالتهم في الاقتراب منها.

وفي هذه الجامعة درس سيلفستر الثاني (جربير دورياك)، الذي شغل منصب البابا من عام 999 إلى 1003 م، ويُقال إنّه هو الذي أدخل، بعد رجوعه إلى أوروبا، الأعدادَ العربية إليها. كما أنّ موسى بنَ ميمون، الطبيبَ والفيلسوف اليهوديّ، قضى فيها بضع سنوات، قام خلالها بمزاولة مهنة التدريس في جامعة القرويّين. كما نُسب إليها أبو عمر وعمران بن موسى الفاسي، فقيهُ أهل القيروان في وقته، وأبو العبّاس بن محمّد بن عثمان الشهير بابن البنّاء، وهو أشهر رياضيّ في عصره، وأبو بكر محمّد بن يحيي بن الصائغ الشهير بابن باجه، وكان ممّن نبغوا في علوم كثيرة منها اللغة العربية والطبّ، وكان قد هاجر من الأندلس وتوفّي بفاس. ومن العلماء الذين أقاموا بفاس ودرسوا بجامعتها ابن خلدون المؤرّخ، ومؤسّس علم الاجتماع، ولسان الدين بن الخطيب، وابن عربي وابن مرزوق وغيرهم كثيرون.

ولم يقتصر فضلها على أولئك العلماء الأعلام ممّن درجوا بين أساطينها، ولازموا زواياها، واعتلَوا كراسيها، ولكن تعدّاه إلى الفُضلَيَات من نساء فاس، اللاتي كنّ يقصدن الأروقةَ الخاصّة التي تشرف على المجالس العلميّة، فكانت العرائس في خدورهن على بيّنة من أمور دينهنّ ودنياهنّ، لأنهنّ تلقين، في دور الفقيهات، ما تلقّته هؤلاء بدوْرهنّ عن شيوخهنّ...

عليها كان المغرب يعتمد في تكوين مختلف أطره، ومنها تخرّج كبار العلماء ورجال القضاء، ممّن زاولوا عملهم في مدينة فاس نفسها، أو في مدن أخرى من المغرب وإفريقيا والأندلس، ومنها صدّر السفراء إلى أقاصي البلاد، فكانوا مثلاً في الإخلاص والصراحة والنصح.

كان لها الفضل في حماية السند والإسناد بالمغرب، وسنّ النظام القائم على الفن، والمشرف على الكتّاب، وإحياء تقاليد الإجازات العلميّة التي ظلت معروفة بأركان القرويّين إلى أن عوضتها، في بدء هذا العهد، بالشهادة الجامعية.

اعتمد العلماء فيها على مؤلّفات المشرق، وعلى الكتب المترجمة في المرحلة الأولى من تاريخ القرويّين: مرحلة التشييد، ولكنّهم لم يلبثوا أن أخذوا يعتمدون على مؤلّفاتهم في المرحلة الثانية: مرحلة الأوج، ثم في المرحلة الثالثة: مرحلة التنظيم، لـمّا ظهرت المطابع الحجرية حيث أخذت فاس تبعث بمؤلّفاتها إلى المشرق.

وقد كان لعلمائها طريقة خاصّة بهم في التأليف غير ما كان معروفًا عند زملائهم في المشرق، وهذه ناحية أخرى تعطي فكرة عن تميّز الشخصيّة المغربيّة، على نحو ما تميّزت به في اختيار المذهب المالكي، وفي اختيار العقيدة الأشعريّة، واختيار تلاوة ورش ورواية ابن سعادة، وابتكارهم لعمل الفاسيّ.

وقد ساعد التنافس في ما بين علمائها على خلق حركة علميّة كان لها جدوى في سوق الفكر بفاس، بما ألهبته من حماس وأذكته من مشاعر (ملحق رقم 2).

**جامعة الأزهر**: أما جامعة الأزهر فقد بدأ التدريس فيها في أواخر عهد المعزّ لدين الله الفاطمي، حيث انعقدت أول حلقة دراسية فيها في صفر سنة 365هـ الموافق للعام 975م. ومنها تخرّج الدعاة بعد أن تطوّر نظام الحلقات ليصبح مجالس فكرية مخصصة. بدأ الأزهر بتدريس الفقه الشيعي في العهد الفاطمي ثم تغير بعد ذلك في عهد صلاح الدين الأيوبي الذي أعاد المذهب السني إلى مصر، وكان تعدد مجالات الدراسة فيه واختلافها وتنوعها وسيلة لاستقطاب الطلاب من أرجاء العالم فأصبحت تدرّس علوم الطب والفلك وفن البيان وعلم المنطق وغيرها (ملحق رقم 3)[17].

**الفصل الثالث**

# حركة الترجمة والنقل والإبداع عند العرب

من المعلوم أنّ الإسلام ليس دينًا، بمعنى العبادات والفرائض وحسب، بل هو دينٌ يدعو إلى الانفتاح على ميادينِ علومٍ ومعارفَ شتّى، وعلى جميع أنواع الحضارات الإنسانيّة، ليقتبس المسلمُ من كلّ ذلك ما يتماشى مع روح العقيدة الإسلاميّة، لأنّ عمارة الأرض التي أمرَ الله بها، وجعلها جزءًا من عبادته، ليست قصرًا على جيل دون آخر، أو حكرًا على أمّة دون أخرى، بل هي تراكم الحضارات المتعاقبة منذ آدمَ عليه السلام، وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها: **(يَاأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ...) [الحجرات: 13]**.

لذلك لم يكُ ممكنًا أن يقفَ المسلمون عند حدود الفتوحات الجغرافيّة، بل كان لا بدّ، للعرب والمسلمين، أنْ يستوعبوا خلاصة الحضارات التي سبقتهم، وأنْ يعرضوها على دينهم وطبيعتهم الحضاريّة، وإلاّ كانت مجرّد فتوحات دنيا، لا فتوحات دين، ومن ثَمّ يقرّرون كيف يمكنُ أن يأخذوا من هذه الحضارات ما يتلاءم مع مبادئهم ومعتقداتهم، ويرفضوا ما سوى ذلك. ولهذا، عَمدوا إلى تجنيد عدد من المترجمين، لينقلوا إلى العربيّة العلوم والنظم والأفكار السابقة... في ظل مُناخهم الإسلاميّ وأنساق حياتهم، ومن ثَمّ ينقلونها دون تأثّر بمناخها وطبيعة حياتها وسلبياتها[18].

وعهد إلى المترجمين، في القرنين الثاني والثالث للهجرة (العصر العباسي)، بنقل أهمّ المؤلّفات اليونانيّة إلى العربيّة، والتوفيق بينها وبين متطلّبات الحضارة الفكريّة

الإسلاميّة؛ كالطبّ والفلك والجغرافية والكيمياء وغيرها.

والمطّلع على كتاب ابن أبي أُصيبِعَة (عيون الأنباء في طبقات الأطباء) يعجب من كثرة أسماء مترجمين وأطباء لم يُسمع بهم من قبلُ.

وهناك مجموعة من النَقَلَة نستطيع أن نتعرف إليهم من قائمة ابن أبي أُصيبِعَة، وردت في الباب التاسع من طبقاته، بعنوان (طبقات الأطباء النَقَلَة)؛ الذين نقلوا كتب الطبّ وغيرها من اللسان اليونانيّ إلى اللسان العربيّ.

والقائمة تبدأ من أيّام الخليفة العباسيّ الثاني أبي جعفر المنصور، الذي تولّى الخلافة عامَ 136هـ- 753م)، ويُعدّ عهده بدء النقل المنهجي لعلوم اليونان والسُريان والفرس والهنود. ولهذه القائمة دلالتها إلى الأهميّة التي احتلّها هؤلاء الناقلون المؤرَّخ لهم.

## أهميّة حركة الترجمة:

أدّت حركة الترجمة إلى ظهور حركة تأليف في بعض المعارف؛ فقد بدأ المترجمون يضعون الرسائل والكتب؛ ليستعملَها الطلاّب على شكل ملخّصات في أنواع علوم شتّى وبخاصّة الطبيّة منها، ثم ما لبثت هذه الحركة أن توسّعت بين العلماء العرب، الذين أخذوا يكتبون على أسس متينة من المعرفة؛ فقد ظهرت، في الطبّ والفقه والتاريخ واللغة- مثلاً-، كتبٌ كثيرة، وبعضها بعدّة أجزاء؛ بحيث كان بعضها أشبه بالموسوعات، كما كان المؤلِّف الواحد يصنف عشرات الكتب في مختلف المواضيع، مدلّلاً على سَعَة معرفته مختلف العلوم.

والجدير ذكره، أنّ المسلمين لم يتعاملوا مع هذه الترجمات بطريقة حرفيّة جامدة، بل سرعان ما قاموا بتفعيلها في إطار ثقافيّ وتعليميّ. يقول أحمد علي الملاّ في كتابه (أثر العلماء المسلمين في الحضارة الأوروبيّة): «إذا كان المسلمون قد نقلوا وترجموا كثيرًا من التراث العلمي للأمم الأخرى؛ كاليونان والفرس، فإنّهم لم يلبثوا أن اعتمدوا على أنفسهم، وعلى المناهج العلميّة التي ابتكروها؛ فافتتحوا المدارس والمعاهد والجامعات، وألّفوا الكتب والمراجع والأبحاث، وأقاموا المراصد والمشافي والمختبرات؛ يدفعهم إلى ذلك نشاط وثّاب، وهمّة عالية لفتت الأنظار إليهم،

وانتزعت الإعجاب بهم، حتى لهج أعداؤهم بالاعتراف لهم بالفضل والسبق».

ولم يلبث المسلمون أن انطلقوا إلى عالم الإبداع، في العديد من الفنون والعلوم، ونجحوا في إقامة حضارة أصبحت الحضارة العظمى خلال عشرة قرون.

أمّا عوامل هذه النهضة العلميّة في الترجمة والنقل والإبداع، فيعدّدها الأستاذ شاكر مولوي في كتابه: الموجز في تاريخ العلوم عند العرب، ونوردها باختصار[19]:

1- انتقال العرب، بعد الفتح الإسلاميّ، من طورِ البداوة إلى الطور الحضريّ. وهذا الانتقال يتطلّب التوسّع في طلب العلوم. فالإسلام، أثار في نفوس معتنقيه التفكير في وجود الله وخلقِهِ الكونَ وعنايته بمخلوقاته. ومن هنا، فقد أوجد فيهم بداءاتٍ من البحث واستعداداتٍ للمتابعة في اتّجاه النموّ والاستكمال. وذلك بتطعيم أفكارهم بغيرها عبر حركة الترجمة والنقل.

2- حاجات المجتمع الجديد في ظروفه الجديدة: لقد جُبِهَ المسلمون بحاجات جديدةٍ. فأصبحوا مضطرّين إلى بناء المدن وإنشاء الساحات العامّة والقصور والجسور وشقّ الطرق... فطلبوا علم الهندسة. وطلبوا علم الحساب لإيجاد المرافق والمؤسّسات الماليّة والعسكريّة والسياسيّة والإداريّة. ثم إنّهم أصيبوا بأمراض جديدة نتيجة الاختلاط والسلوك والممارسات الجديدة فطلبوا علم الطبّ. ولما كانوا متمسّكين بتأدية سائر الشعائر الدينية وضبطِ مواعيدها جميعًا... طلبوا علم الفلك حتى إذا تعرّضوا في مناقشاتهم دفاعًا عن دينهم، اعتمدوا المنطق والعلم.

3- الشعور بالحاجة إلى استكمال جوانب الشخصيّة المسلمة في نموّها المتوازن: ذلك أنّ النصر العسكريّ والمستوى الاقتصاديّ والمجد السياسيّ الظاهر... كلّها جوانب لا يبلغ واحد منها كامل مداه، إلاّ بتحقيق التوازن والاتّساق بينها وبين سائر الجوانب الأخرى.

4- الظروف المؤاتية: في الأمن والاستقرار وحريّة الفكر التي أوجدها انتشار الإسلام ويتطلّبها كلُّ نشاطٍ فكريّ وعلميّ.

5- موقف الدين من طلب العلم: أَمَرَ الدين الإسلاميّ أتباعه بالإيمان بربوبيّة الإله الخالق. ودعا إلى سلوك طريق الفحص لمختلف مظاهر الكون، ودراسة

أنواع المخلوقات، وبذلك يصل المؤمن إلى معرفة أسرار الكون. وتدفعه هذه المعرفة إلى الإيمان. وقد علم المسلمون أنّ العبادة في دينهم لا تقتصر على علاقةٍ روحيّةٍ مع الخالق، بل تشملُ كلّ عملٍ ونشاطٍ للإنسان، وأرادوا طاعة ربّهم وطاعة نبيّهم؛ فأقبلوا على العلم وبلغوا فيه أعلى الدرجات.

6- المواقف الشخصيّة لبعض الخلفاء؛ كالمنصور والرشيد والمأمون: فالمنصور شجّع على نقل كتب الطبّ. وهو والرشيد شجّعا على نقل كُتب الفلك. أما المأمون فقد شجّع على نقل كتب الفلسفة والعلوم على السواء. وكلّ هذا التشجيع كان تنفيذًا لتوجيهات الدين.

7- نشوءُ عقليّةٍ جديدة، متأثّرةٍ بالحضارة الفارسية في مَيْلها إلى العمل الفكريّ وشغفها بتحصيل العلوم.

8- تحمّس الأعاجم لقوميّتهم كردّة فعل على تحدّي العرب، ومقابلة هذا التحدّي بتحدٍّ من نوع آخر، يُظهر ما عند أصحاب تلك الحضارات من علومٍ وآداب وفلسفة ورقيّ وفنّ وحضارة.

بديهي أنّ الحضارة الإسلاميّة لم تقف عند حدود الترجمة والنقل، ذلك أنّ ما يسهم في بناء الحضارة ليست أعمال الترجمة والنقل، بل ما يضاف إليها من أبحاثٍ وإبداعٍ وفكرٍ جديد.

وهذا ما جعل الخليفة الموحدي، أبو يعقوب يوسف (1160- 1199م)، بعد أن قرأ ترجمات أرسطو ولم يفقه منها الكثير، يطلب من الفيلسوف ابن رشد أن يشرح هذه الترجمات، ويعمل على تفسير مضامينها ويرد على منتقديها، ويتعمّق في أبحاثه حول ما جاء فيها، سواء في الطب أو الحساب أو الفلك، وغيرها من العلوم المترجمة والمعروفة آنذاك، فأصبحت أعماله الفلسفية والعلمية التطبيقية تدرّس في أرقى جامعات أوروبا والعالم، منذ ذلك التاريخ وحتى الأمس القريب. لذلك يمكننا القول بأن ابن رشد لم يُعرف كقارئ بسيط لكتب أرسطو المترجمة، بل لأنّه استوعب مضامين هذه الكتب وانطلق منها في سبيل تكوين منظومته العلمية الخاضعة لمنطق العقل والتحليل والاستنتاج.

على هذا المثال، يبني الباحث الدكتور بسام بركة خلاصته حول دور الترجمة في

بناء الحضارة بالقول: «إنّ الترجمة ليست سوى حلقة في سلسلة تبدأ بتحصيل المعرفة في اللغة الأم، وتنتهي بالانتماء إلى الثقافة، مرورًا ببناء المنظومة الفكرية، وتمتين الانتماء إلى الهويّة...، وبالتالي فهي ليست سوى انطلاقة لوضع لبنة من لبنات البناء الفكري والثقافي في المجتمع الذي يتلقاها.

كما أن الترجمة لا تحمل أبناء اللغة التي يُترجم إليها، بحيث تدفعهم إلى العمل والدخول في ركاب التطور الفكري، بل على العكس من ذلك، أبناءُ هذه اللغة هم الذين يحملون ما يترجم ويستوعبونه ويتمثلونه. وبذلك يُكتب لهم التقدم في العمل والتطور في الفكر. وبالتالي لا بد من أن يحملَ أبناءُ اللغة التي يُترجم إليها، الفكر المنقول بواسطة الترجمة، بمعنى أن يتدبروا مضامينه، فينقدوها ويخضعوها للبحث والتفسير، حتى تدخل في سياق منظومتهم الفكرية (والعقدية)، مما يجعلها تتلاءم مع إطارهم الثقافي، وتتلاحم مع شبكة الأفكار الراسخة في سياق التيارات الاجتماعية والفلسفية والحضارية المعاصرة لعمليات الترجمة التي يتلقونها.

كما تجدر الإشارة إلى دور أهل السلطة في تفعيل عملية الترجمة وما بعدها. ولولا الخليفة أبو يعقوب يوسف لما اتجه ابن رشد إلى شرح أرسطو، أو لما كان لديه ما يكفي من الوقت والمال ليفعل ذلك».

واستطرادًا لذلك وبناءً عليه، يمكننا القول بأنه لولا هذا الفهم المتقدم لدور الترجمة والنقل، لما انطلق البحث العلمي، القائم على مبدأ التجربة والملاحظة، ولما أصبح صفةً مميزةً للتطور العلمي الكبير، الذي شكّل محور الحضارة الإسلامية والرافع لها.

وقد شهد علماء الغرب بذلك، شهادات كثيرة، نذكر منها ما قالته المستشرقة الألمانية زيغريد هونكه: «إن الإغريق تقيّدوا بسيطرة الآراء النظريّة، ولم يبدأ البحثُ العلميّ القائم على الملاحظة والتجربة إلاّ عند العرب»[20]. فمثلاً، مع انتشار المستشفيات في أنحاء الدولة الإسلامية، بعد القرن الثالث للهجرة، كان تحديد الموقع المناسب لبنائها يجري من خلال تعليق اللحوم «في مواطن مختلفة من المدينة في وقت واحد. فأيّها أسرع إليه العفن اجتنبوا مكانه، واختاروا المكان الذي تتأخّر فيه عوارض الفساد»[21].

كما اشتُهِر عن الرازي فضل السبق في إجراء التجارب الطبيّة على الحيوان «القرد» قبل إعطاء الدواء للإنسان. وكانت مقالاته عن الجُدَري والحصبة أوّل عملٍ محكَم في الأمراض المعدِية. والأمثلة على ذلك كثيرة جدًّا.

يضاف إلى ذلك الابتكارات العلميّة التي حقّقها العرب، وتفوّقوا فيها تفوّقًا ملحوظًا على جميع من سبقهم ونقلوا عنه، وعلى جميع من عاصرهم حتى استحقّوا بجدارة لقب روّاد الحضارة الإنسانية بفضل اختراعاتهم. مثلاً، فقد أرسل هارون الرشيد في مطلع القرن التاسع ميلادي (حوالي سنة 807) هديّة عجيبة إلى شارلمان ملك الفرنجة، وكانت عبارة عن ساعة ضخمة بارتفاع حائط الغرفة تتحرّك بواسطة قوّة مائية؛ وعند تمام كلّ ساعة يسقط منها عددٌ معيّن من الكرات المعدِنيّة، بعضُها في أثر بعض، بعدد الساعات، فوق قاعدة نحاسيّة ضخمة، فيسمع لها رنين موسيقى يُرجَّع دويُّه في أنحاء القصر.. وفي الوقت نفسه يفتح باب من الأبواب الاثني عشر المؤدّية إلى داخل الساعة، ويخرج منها فرسانٌ مرة واحدة، ويدورون دورة كاملة، ثمّ يعودون فيدخلون من الأبواب، فتُغلَق خلفهم. كان هذا هو الوصف الذي جاء في المراجع الأجنبيّة والعربيّة عن تلك الساعة التي كانت تُعَدّ وقتئذٍ أعجوبةَ الفن، وأثارت دهشة الملك وحاشيته... ولكنّ رهبان القصر اعتقدوا أن في داخل الساعة شيطانًا يحرّكها.. فتربّصوا به ليلاً، وأحضروا البلطات وانهالوا عليها تحطيمًا، إلاّ أنّهم لم يجدوا بداخلها شيئًا. وتواصل مراجع التاريخ الرواية.. فتقول: إنّ العرب قد وصلوا في تطوير هذا النوع من الآلات لقياس الزمن بحيث إنّ الخليفة المأمون أهدى إلى ملك فرنسا ساعة أكثر تطوّرًا، تدار بالقوة الميكانيكيّة، بواسطة أثقال حديديّة معلّقة في سلاسل وذلك بدلاً من القوّة المائيّة.

**الفصل الرابع**

# خصائص التعليم في عصر الحضارة الإسلاميّة

انعكست طريقة التعليم الدينيّ وما فيها من حفظ وتكرار، وأسئلة وحوار، ومناقشة وتمحيص، وقياس واستقراء، وبيان واستنتاج، وتيقّن وتلقين، ومشافهة وتبليغ، على تعليم العلوم الأخرى فأصبحت حلقات العلم كحلقات الذكر، والمعلّم (أو المدرّس) هو شيخ الحلقة. ومن خصائص ومميّزات التعليم في ذلك العصر، نذكر:

1- **البدء بالتعليم الدينيّ قبل العلوم الأخرى** وإعطاؤه أولويّة راجحة، كالبدء بتحفيظ القرآن الكريم، حتى قبل تعلّم القراءة والكتابة، ثم السيرة النبويّة الشريفة، وأقوال الفقهاء والتفاسير، وغير ذلك من علوم الدين. ممّا يكون له أثره العميق في صقل النفوس وتربيتها، وتقويم الأخلاق وتزكيتها. ولذلك، كان من بين الأولاد من أتمّ حفظ القرآن وهو ابن ست سنوات أو سبع سنوات وغير ذلك «ومن شبّ على شيء شاب عليه».

يقول تعالى: **(اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ * خَلَقَ الإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ * اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ * الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ * عَلَّمَ الإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ) [العلق: 1-5]** فالقراءة وطلب العلم لا يكون إلا باسم الله الخالق، الذي فاض على الإنسان عمومًا بما شاء له من علمه، بدءًا من آدم عليه السلام، عندما علّمه ربّه الأسماء كلّها.

ويقول تعالى في سورة الرحمن: **(الرَّحْمَانُ * عَلَّمَ الْقُرْآنَ * خَلَقَ الإِنْسَانَ * عَلَّمَهُ الْبَيَانَ) [الرحمن: 1-4]** وهنا أيضًا، تبدأ السورة بأحبّ الأسماء الحسنى، بعد

لفظ الجلالة، «الرحمن» الذي، بفضل رحمته الإنسانَ، علّمه القرآن أوّلاً، ثم علّمه البيان تاليًا. فإذا ما ترقّى الإنسان مقرًّا بأنّ علمه ليس إلا فيضًا وفضلاً ونعمةً من خالقه، وكان تعلّمه القرآن والعلوم الدينيّة الأخرى ما يتناسب مع عمره- مع التأكيد على تعلّم القرآن في الصغر، وتيسيره للحفظ عند الصغار، يقول الله تعالى: **(وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ) [القمر: 17]**- سابقًا لما سواهما، فإنّ هذا العلم سيكون له أثرٌ كبير في توسيع مدارك الأطفال، وتقوية ذاكرتهم، وتعويدهم الحفظَ وشدّة الملاحظة. فالعلامة الكبير ابن سينا أتم حفظ القرآن الكريم ابن عشر سنوات، وقام بعلاج السلطان نوح بن منصور السامانى، ولم تتجاوز سنه الثامنة عشرة، وألّف ما يزيد على مئتي كتاب معظمها في الطب، أشهرها كتاب «القانون» الذي يقول عنه الطبيب الكندي ويليم أوسلر إنه: «الإنجيل الطبي الأول لأطول فترة من الزمن». فالقرآن الكريم والحديث النبويّ الشريف يمثلان أعلى أنواع الحكمة. فالقرآن الكريم، هو ما لا يمكن أن يرقى إليه بشر. والحديث النبويّ الشريف هو أقصى ما يمكن أن يرقى إليه بشر. وفي كل ذلك أرقى أنواع الحكمة والبلاغة والعلم والحجة. كما في القصص القرآنيّ، دروس وعبر بالغة، لا يملّ القارئ تكرارها واستنباط المواعظ منها. وفي القرآن والسنّة، تشريع ربانيّ لخير الناس أجمعين. فإذا أتقن الأولاد حفظهما منذ الصغر، كانا لهم زادًا مدى العمر، يحتكمون إليهما، ويتزودون منهما، في كل ما يعترضهم من أمور حياتيّة، وعند كل منعطف واستحقاق. فإذا ما انطلقوا، بعد ذلك، إلى العلوم الأخرى، تجلّى الإبداع عندهم، فتقدّموا على غيرهم في عصورهم، وكانوا روّادًا في العديد من المجالات العلميّة والبحثيّة والتطبيقيّة. خصوصًا أنّ علوم الدين، أيضًا، تأمر بالتفكّر والتدبّر والتأمّل، وتأمر بالاستزادة من العلوم جميعها، كما تأمر بعمارة الأرض وتعليم الناس ما ينفعهم، وتنهى عمّا يضرّهم. أضف إلى ذلك، أن البدء بالتعليم الديني، من حفظٍ للقرآن الكريم والسنّة النبوية الشريفة وتدبر لهما، ساهم في ارتباط وثيق بين علوم الدين عمومًا والعلوم في النهضة العلمية السليمة، في الوقت الذي كانت فيه أوروبا تعاني من انشقاق كبير وهوّة واسعة بين رجال الكنيسة وعلماء ذلك

العصر، وصلت إلى تكفير أهل العلوم المدنية وزجهم في السجون وقتلهم وما إلى ذلك. وعُرِف هذا العصر بعصر الانحطاط العلمي في أوروبا. ولم تنهض أوروبا من كبوتها إلا بعد أن أدرك الحكام ورجال الدين فيها هذه المسألة، عندما طلبوا العلم في مدارس المسلمين وجامعاتهم، وعادوا إلى بلادهم يحملون ثقافة هذا الارتباط الوثيق بين الحكام ورجال الدين وأهل العلوم المدنية فأنشأوها، وطبقوها، وبدأت الجمعيات الدينية بإنشاء المدارس والمعاهد التعليمية في أوروبا وخارجها وعرفت بالإرساليات والمدارس التبشيرية (كالجزويت والفرير وغيرهما).

تجدر الإشارة إلى ما أورده موقع الجزيرة أون لاين بتاريخ 2012/7/7 من أن ممثل الكونغرس الديمقراطي من ولاية إنديانا الأميركية، أندري كارسون، قد طالب بجعل أسس القرآن الكريم منهاجًا للتعليم في المدارس الأميركية. وأوضح كارسون في خطابه أمام مؤتمر الدائرة الإسلامية لشمال أميركا في 2012/5/27، بأن المدارس الدينية وخاصة الإسلامية التي تتخذ القرآن أساسًا في تعاليمها تحقق نجاحًا كبيرًا في كافة المجالات التعليمية، وتحفز على الإبداع والابتكار بعكس المدارس الأخرى[22].

2- **التأكيد على التربية قبل التعليم**: يقول الكاتب علي بن نايف الشحود في كتابه «الحضارة الإسلامية»...[23] نقلاً عن كتاب «معالم القرية في أحكام الحسبة»: وقد تميّز التعليم في الكتّاب بالاهتمام بالآداب الاجتماعيّة «حيث يقوم المعلّم بتأديب الأطفال، وتربيتهم التربية الصالحة، وتعويدهم العادات الحسنة وتعليمهم كيفيّةَ احترام الناس، ومراعاة الذوق والأدب، طبقًا للعُرف الجاري، وأن يُلقوا السلام على من يدخل عليهم، أو يمرّ بهم من الناس، ويأمرهم بِبِرّ الوالدين، والانقياد لأمرهما بالسمع والطاعة، والسلام عليهما، وتقبيل أياديهما عند الدخول إليهما، ويَضرِب المعلّم طلاّبه على إساءة الأدب، والفُحش في الكلام، وغير ذلك من الأفعال الخارجة أحيانًا عن قانون الشرع»[24].

ولعلّ في حديث الإمام الغزالي، عن رياضة الأطفال وتربيتهم، ما يوضح ذلك أيضًا. يقول الغزالي: «والصبيّ أمانة عند والديه، وقلبه الطاهر جوهرة نفيسة

ساذجة، خالية من كلّ نقش وصورة، وهو قابل لكلّ ما نقش، ومائل إلى كلّ ما يمال إليه. فإن عوّد الخير وعُلّمه، نشأ عليه وسعد في الدنيا والآخرة، وشاركه في ثوابه أبواه وكلّ معلّم له ومؤدّب، وإن عُوّد الشر وأُهمل شَقِي وهَلَك. وكان الوِزر في رقبة القيّم عليه والوالي له. وعلى الوالي (المدرّس) أن يصون الصبيّ عن الآثام بأن يؤدّبه ويهذّبه ويعلّمه محاسن الأخلاق... وينبغي أن يتذكّر الوالي (المدرّس) أنّ تربية الصبيان ليست مقصورة على تعليمهم، وإنّما تشمل ألوانًا لا تقلّ أهميّة عن التعليم... ويُشغل في المكتب (الكتّاب) فيتعلّم القرآن، وأحاديث الأخيار، وحكايات الأبرار... ويعوّد، في بعض النهار، المشي والحركة والرياضة حتى لا يغلب عليه الكسل... ينبغي أن يؤذن له بعد الانصراف من الكتّاب أن يلعب لعبًا جميلاً يستريح إليه من تعب المكتب...[25].

3- **مراعاة عدم التجانس في المستويات العلميّة عند المتعلّمين**: فالكتّاب عبارة عن «صفّ» ولكنّه ليس صفًّا بالمعنى المعاصر للكلمة. إنّه غرفة تضمّ مجموعة غير متجانسة من المتعلّمين، يتوجّه المعلّم إليهم- بدءًا- كجماعة متجانسة، وعندما يحصل على ردود فعل غير متجانسة، يرجع بردّ متلائم مع وضعيّة كلّ متعلّم. أي، إذا كان المكان محدودًا، فإنّ الوقت اللازم، للحصول على كميّة معيّنة من المادّة التعليميّة غيرُ محدود...، ويتحوّل المتقدّمون منهم إلى «عرفاء» أو«وكلاء» أو «معيدين» أو «مساعدين» للمعلّم. يقول الإمام الغزالي في الرسالة اللدنية: «إنّ من واجب المدرّس أن لا يشرك الذكيّ مع الغبيّ في التلقّي، فهو تقصير في حقّ الذكيّ وإرهاق للغبيّ».

4- **السؤال من ضروريات التعليم الناجح**: بيّن الرسول صلّى الله عليه وسلّم أهميّة السؤال في العمليّة التعليميّة حيث يقول: «... فإنّما شفاءُ العيّ السؤال». وقد قيل، إنّ الناس أشدّ تذكّرًا، لما تلقّوه أجوبةً عن سؤالٍ، أكثر ممّا أخذوه من طريق القراءة والحفظ. ذلك، لأنّ عمليّة طرح الأسئلة تحمل على التفكير الجادّ، وتجعل الأمور واضحة في الذهن، حيّةً في الفكر. فالأسئلة هي لبّ التعلّم ومخّ الدراسة. وقيل أيضًا: «كنوز العلم أسئلة وأجوبة».

ويقول الإمام ابن شهاب الزهري: «العلم خزائن ومفاتيحها السؤال» أي إنّ الذي يَستخرجُ ما في صدور العلماء من العلم هو مساءَلَتُهم.

وحثّ عليّ بن أبي طالب الطلاّب ألاّ يهابوا السؤال ويستحيوا منه، فقال: «قُرِنَتِ الهيبةُ بالخيبة، والحياء بالحرمان»[26]. وقيل لأحدهم: بِمَ أدركت هذا العلم؟ فقال: «بلسان سؤول، وقلب عقول، وكنتُ إذا لقيتُ عالما أخذت منه وأعطيته»[27].

ويحكى أنّ سفيان الثوريّ لما قدم عسقلان، مَكَثَ فيها، لا يسأله إنسان، فقال: «أكروا لي (أي استأجروا لي) راحلة، لأخرج من هذا البلد، فإنّه بلد يموت فيه العلم».

وكانت الأسئلة تجري تبعًا لآداب خاصّة، فكان على الطالب أن يسأل تفقهًا، لا تعنّتًا ولا رياءً، كما كان عليه أن يختار الوقت المناسب لإلقاء سؤاله، فلا يقاطع مدرّسه وهو يتكلّم، ولا زميله وهو يسأل[28].

5- **اللغة العربية**: كانت اللغة العربية على الدوام- حتى قبل نزول القرآن- لغة غنيّة بمفرداتها ودقّة وصفها، حيّة في طواعيّتها، فاعلة ومؤثّرة في محيطها وبين أهلها. تملك القدرة على التعبير عن أدقّ المشاعر والأحاسيس، بموجز المفردات والتعابير، كما تملك المشتقّات والتشابيه والاستعارات، والمرونة الكافية، مع القدرة على التكيّف اللغويّ مع المصطلحات الجديدة. ولذلك حُقّ للعرب أن يفخروا بها، ويزدادوا فخرًا بها مع نزول القرآن الكريم، الكتاب السماويّ الخاتم، باللغة العربيّة، ويتمسّكوا بها بل يزدادوا تمسّكًا بها، مع بدء الترجمات من اللغات الأخرى إلى لغتهم، فأوجدوا المصطلحات والمشتقّات وكلّ ما يلزم للحفاظ عليها.

وكان فقه اللغة، عندهم، علمًا بالغَ الأهميّة، فألّفوا كتب النحو والمعاجم العظيمة، وكان بعض هذه المعاجم يضمّ ستّين مجلّدًا، ويشرح كلّ كلمة بالتفصيل مع الصور والرسوم.

فهذا خالد بن يزيد، عندما تنازل عن العرش، وانصرف إلى العمل في مجال العلوم وأبحاثها، دعا المتعلّمين من الإغريق والأقباط، وعهد إليهم بترجمة

المؤلّفات اليونانيّة والقبطيّة إلى اللغة العربيّة، مصرًّا بذلك على أن يتعامل مع الثقافات المختلفة باللغة العربيّة، وليس بلغاتها التي وصلت بها إليه. وقد وضع بذلك بدء عهد الترجمة عند العرب(29).

وعندما كثرت الفتوحات الإسلاميّة، واختلط العرب بالعجم، خاف العرب على فساد اللسان العربيّ، فكانوا يرسلون أبناءهم إلى البادية، لسلامة لسان أهلها، فحافظوا بذلك على اللغة العربيّة نقيّة من الشوائب والمفردات الدخيلة.

6- **تعلّم اللغات الأخرى**: ورغم هذا الاهتمام الكبير جدًّا باللغة العربية، لم يتوانَ المسلمون عن الاهتمام باللغات الأخرى، ما دام عند الآخرين علمٌ مفيد يمكن اقتباسه، وما دامت لهم علاقات وصلات بالآخرين، ورسالة الإسلام رسالة عالميّة لا تقتصر على قوم دون آخرين، بل هي للناس كافّة.

من أجل ذلك أمر رسول الله، صلى الله عليه وسلم، الصحابيَّ زيدًا بن ثابت أن يتعلّم اللغة السُريانيّة التي كان اليهود يستعملونها في ذلك الحين، فأتقنها زيد، رضي الله عنه، قراءة وكتابة، واستغنى الرسول، صلّى الله عليه وسلم، بذلك عن وسطاء الترجمة من اليهود، كما كان هناك كثيرٌ من الصحابة ممّن يعرفون الفارسيّة والروميّة والحبشيّة، وقد استعملوا هذه اللغات في الدعوة إلى الله. ولمثل ذلك كان الشاعر صفي الدين الحلّي (677-750هـ) يقول:

بقدر لغات المرء يكثر نفعه
فتلك له عند الملمّات أعوانُ
فأقبل على درس اللغات
فكلّ لسان في الحقيقة إنسانُ

7- **الارتباط المباشر بالمعلم وإجازة التعليم (أو الشهادة)**: المعلم، وحده هو الذي يحقّ له أن يجيز طالبه، والإجازة هي التعبير الذي يعني نقل أو حقّ استعمال مادّة معرفيّة ما إلى شخص آخر (كما ينتقل الإرث)، ويتمّ ذلك بشكل شفهيّ أو خطّي. فقد كان المعلّم يوصي أو يجيز بالموقع التعليميّ لأكثر طلاّبه اتقانًا لما تعلّم.

ويؤكد ابن خلدون أهمّيةَ التلقين المباشر والمشافهة في التعليم، «لأنّها أشدّ استحكامًا وأقوى رسوخًا» و«الرحلة في طلب العلوم، مزيدُ كمالٍ في التعليم» وكانوا يقولون: «من كان شيخه كتابه، فخطؤه أكثر من صوابه».

وكان الإمام الشافعي- رحمه الله، يقول: «من تشيّخ من بطون الكتب ضيّع الأحكام».

كما يقول أحدهم: «لا علم لمن لا شيخ له»، ذلك أنّ حفظ القرآن الكريم لا يتمّ إلا على يد الشيخ الحافظ، وهو الذي يجيز. ولذلك ترى الحَفَظَة المجازين، حتى يومنا هذا، يحملون إجازاتهم، حافظًا عن حافظ، وصولاً إلى رسول الله، صلّى الله عليه وسلّم. تجدر الإشارة إلى أنّ المشافهة في التعليم لم تكن إسلاميّة بحتة، فقد كانت عند العرب قبل الإسلام بسبب عدم وجود الكتب المنسوخة بشكل كافٍ، وقد انتقلت إلينا ثقافتهم، من شعر ونثرٍ وحكمةٍ وغير ذلك، بفضل الحفظ والنقل الشفهيّ من جيل إلى جيل. وفي زمن الدعوة الإسلامية حافظت المشافهة على مواكبتها، فها هو رسول الله، صلّى الله عليه وسلّم يقول: «ليبلّغِ الشاهدُ منكم الغائب» و«بلّغوا عنّي ولو آية، وربّ مبلّغ أوعى من سامع».

أمّا في الاختصاصات الإنسانيّة العليا والمهن الحرّة، فقد أوجد المسلمون نظام الإجازة من الجهات المختصّة، فمثلاً في الطبّ، كلّف الخليفة المقتدر، عام 931م، سَنان بنَ ثابت بن قُرّة إجراء الامتحان وإعطاء الإجازة لكلّ من تثبت كفاءته. (وكان عدد الأطبّاء في بغداد حينئذٍ حوالي 900 طبيب). ثم أصدر أمرًا تنظيميًّا حدّد فيه أصول العمل في الطبّ وحصره في من يجتاز الامتحان (الكولوكيوم) ويحصل على إجازة تكون له وثيقة رسمية تخوّله حقّ ممارسة الطبابة دون غيره، ويخضع للمراقبة بعد نيل الإجازة (وخاصّة الطبيب المستجدّ)[30].

8- **أدبهم في طلب العلم ونقله:** يقول الحسن البصريّ: «إذا طلب الرجل العلم، فينبغي أن يُرى ذلك في تخشّعه وزهده ولسانه وبصره» ويقول أيضًا: «إذا جالستَ العلماءَ فكُنْ، على أن تسمع، أحرص منك على أن تقول، وتعلّم

حسن الاستماع، كما تتعلّم حسن الصمت، ولا تقطع على أحد حديثه. وإن طال حتى يمسك» وكانوا يقولون: «العلم بلا أدب كنارٍ بلا حطب».

وتقول المستشرقة الألمانية زيغريد هونكه في كتابها «شمس العرب تسطع على الغرب»: «كان الفّلاحون يسلّمون أولادهم إلى معلّمين في المدينة، فيأخذ المعلّم الصبيّ إلى منزله، ويتعهّد بإعداده حسب ما أوتي من ذكاء لإحدى وظائف الدولة، ويقدّم الوالد مقابل ذلك مبلغًا من المال، أو كمّية من الموادّ التموينيّة، ويذهب الصبيّ الذي يطمع أن يكون يومًا ما قاضيًا، أو موظّفًا من موظّفي الدولة، مع معلّمه فلا يفارقه، يعاونه في أعمال المنزل، ويشتري له حاجاته من السوق، يصطحبه في خروجه إلى الحمّام أو إلى الجامع...

وقابل المعلّمون هذا الوفاء، من تلاميذهم، بمحبّة أبويّة؛ فقد يتّفق لأحد المعلّمين أن يبيع حماره، ليشتريَ لتلميذه المريض ما يلزمه من الدواء، ويظلّ يخدمه طوال مرضه، بل ويحمله بنفسه إلى الحمّام الساخن».

وكان عبد الله بن عباس- رضي الله عنه- يقول: «أعزُّ الناس عليّ جليسٌ لطلب العلم، فوالله لو وقعت ذبابةٌ على أحدهم لآذتني».

«ولم يكن لأحدٍ أن يأخذ آراء أستاذه، التي ألقاها شفهيًا في إحدى محاضراته، ليدرّسها لتلاميذه، دون أن يستأذن أستاذه صاحبَ الرأي نفسه. ويقول الطلبة عن أستاذهم الكريم، الذي يمنحهم تصاريح نقل إنتاجه العلميّ، إنّه قد غمر الأرض بشهود على عبقريّته، ذلك، أنّ من يحصل على هذا الإذن يملك حقّ تدريس ما صرّح له به، وبذلك كان حفظ حقّ المؤلف مرعيًّا مقدّسًا».

يقول المؤرخ عبد الكريم بن محمد السمعاني: «وأخذ الحديث عن المشايخ يكون على أنواع منها أن يحدّثك به المحدث، ومنها أن تقرأ عليه، ومنها أن يُقرأ عليه وأنت تسمع، ومنها أن تعرض عليه، وتستجيز منه روايته، ومنها أن يكتب إليك ويأذن إليك في الرواية فتنقله من كتابه أو من فرع مقابلٍ بأصله. وأصحّ هذه الأنواع أن يملي عليك وتكتبه من لفظ...»[31].

وقد ذكر الدكتور سعيد اسماعيل علي في كتابه «أعلام تربية في الحضارة الإسلامية»[32] مجموعة من المؤلفات لأعلام من العرب، كتبوا عن أدب طلب

العلم منها:

- «أدب الإملاء والاستملاء» لعبد الكريم بن محمد بن منصور السمعاني.
- «تعليم المتعلم طريق التعلم» لبرهان الإسلام الزرنوجي.
- «تذكرة السامع والمتكلم في آداب العالم والمتعلم» لبدر الدين ابن جماعة الحموي، الذي ولي القضاء بمصر زمنًا وزاول بها التدريس زمنًا آخر.
- «تحرير المقال» لابن حجر الهيثمي الذي تناول قضية أجور المعلمين ومستويات السلطة التعليمية وأوضاع الطلاب في المدارس الداخلية والعقوبات التأديبية.
- «اللؤلؤ النظيم في روم التعلم والتعليم» للشيخ زكريا الأنصاري.
- «الأخلاق والسير في مداواة النفوس» للفقيه الظاهري ابن حزم.
- «أدب الطلب» لمحمد بن علي الشوكاني.

وغير ذلك كثير.

9- توقيرهم العلم وأهلَه: رفع القرآن الكريم من شأن العلم وأهله في آيات عديدة، حيث يقول تعالى: (... **قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ...**) [الزمر: 9]، وفي آية أخرى: (... **يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ...**) [المجادلة: 11]...

وعن عليّ بن أبي طالب- كرّم الله وجهه- أنّه قال: «من حقّ العالِمِ عليك، إذا أتيته، أن تُسلّم عليه خاصّة، وعلى القوم عامّة، وتجلس قدّامه، ولا تُشِرْ بيدك، ولا تغمز بعينيك، ولا تقل: قال فلان خلافَ قولك. ولا تأخذ بثوبه، ولا تلحّ عليه في السؤال، فإنّما هو بمنزلة النخلة المرطبة، التي لا يزال يسقط عليك منها شيء»[33]، ويقول الإمام الغزالي في كتابه الإحياء: «حقّ المعلم أعظم من حق الوالدين، فإن الوالد سبب الوجود الحاضر والحياة الفانية، والمعلم سبب الحياة الباقية».

ويروى أن الشيخ الكسائي- عالم النحو المشهور- «كان معلّمًا في قصر

هارون الرشيد، يعلّم ولديه الأمين والمأمون، وفي ذات يوم شرح الدرس، فلمّا انتهى من ذلك استبق التلميذان لحمل نعله، فاختلفا على ذلك ثم اتفقا على أن يقدّم كلّ واحدٍ نعلاً له».

ويروي الإمامُ برهان الدين الزرنوجي في كتابه: «تعليم المتعلّم على طريق التعلّم»، أنّ هارون الرشيد بعث ابنه إلى الأصمعي، ليعلّمه العلم والأدب، فرآه يومًا يتوضّأ ويغسل رجليه، وابن الخليفة يصبّ الماء على رجليه، فعاتب الخليفةُ الأصمعيّ في ذلك بقوله: «إنّما بعثته لتعلِّمَه العلم وتؤدّبه، فلماذا لم تأمرْه بأن يصبَّ الماء بإحدى يديه، ويغسلَ بالأخرى رجلك؟»[34].

ويُروى أنّ الإمام أبا حنيفة النعمان كان يسير مع تلميذه في طريق، فصادفا حفرة، فقال الإمام لتلميذه: «انتبه من الوقوع في الحفرة. فقال له تلميذه: إن أنا وقعتُ وقعتُ بمفردي، وإن أنت وقعتَ، وقعتِ الأمّة معك».

ولعلّ في القول المأثور عند العرب: «من علّمني حَرفًا صرتُ له عبدًا» خيرَ دليل على توقير التلميذِ معلّمَهُ، توقيرًا واحترامًا وتقديرًا للعلم وأهله.

**10- التعليم المستمرّ أو المستدام**: ظهر هذا المصطلح في العالم حديثًا (أواخر القرن الماضي) وقد جاء في توصيات «المؤتمر القوميّ لتطوير التعليم» الذي عقد في القاهرة عام 1987: «الأخذ بفلسفة التعليم المستمرّ مدى الحياة، بحيث ينعكس في جميع المراحل والتبعيّات التعليميّة، ويشكّل لدى المتعلّمين كافّةً اتّجاهًا أساسيًا، إذ إنّ هذه الفلسفة أصيلة، تعود إلى تراثنا الإسلاميّ، ويتبناها العالمُ اليوم...».

لكنّ دعوة القرآن الكريم منذ ما يزيد على أربعة عشر قرنًا من الزمان إلى التزوّد بالعلم، دعوة مفتوحة لكلّ عمرٍ وعصرٍ ومصر (... **وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا**) **[طه: 114]** ويقول أيضًا: **(قُلِ انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لاَ يُؤْمِنُونَ) [يونس: 101]**. وقد اشتهر عند المسلمين هذه الحكمة: «طلب العلم من المهد إلى اللحد»، حتى ظنّها بعض الناس حديثًا نبويًا وهي من مأثور التراث الإسلامي. وكان الإمام أحمد بن حنبل يقول: «مع المحبرة إلى المقبرة». وسئل أحد الحكماء عن حدّ التعلُّم

فقال: «إن حدّ التعلُّم هو حدّ الحياة». ومن حِكَمِ عبد الله بن المبارك، قوله: «لا يزال المرءُ عالما ما طلب العلم، فإذا ظنّ أنّه عَلِمَ فقد جهل». وكان علي بن أبي طالب–رضي الله عنه– يقول: «الإعجاب يمنع من الازدياد». وسئل أبو عمرو بن العلاء: متى يَحسنُ بالمرء أن يتعلّم؟ قال ما حسُنتْ به الحياة. وسئل سفيان بن عيينة: من أحوج الناس إلى طلب العلم؟ قال: أعلمهم، لأن الخطأ منه أقبح. وسئل الحسن عن الرجل له ثمانون سنة: أيحسن أن يطلب العلم؟ قال: إن كان يحسن به أن يعيش؟

وكان أئمة الإسلام إذا قيل لأحدهم: إلى متى تطلب العلم؟ فيقول: إلى الممات [35].

وكان أبو النواس يقول:

فقل لمن يدّعي في العلم فلسفةً
حفظتَ شيئًا وغابت عنك أشياءُ

وكان شاعرهم يقول:

إذا مرّ بي يوم ولم أستفِدْ هدًى
ولم أكتسب علمًا فما ذاك من عمري

وقال غيرهم: «والعلم لا يعطيك بَعْضَهُ إن لم تُعْطِهِ كلّك».

**11– التفرغ لطلب العلم من الصغر**: من الأمثال المأثورة عند العرب «العلم في الصغر، كالنقش في الحجر». وقد أوجز حاجي خليفة في كتابه[36] بعض شروط تحصيل العلم في قوله: «إنّ من شرائط تحصيل العلم، أن يكون الطالب شابًّا فارغ القلب، غيرَ ملتفت إلى الدنيا، قليلَ العوائق، حتى الأهل والأولاد والوطن».

وكان من نتيجة إقبال الطلاّب على حلقات التعليم، وهم في سنّ مبكرة، أن أتقنوا قسطًا كبيرًا من العلوم. ووصلوا إلى مراكزَ علميّة مرموقة وهم في مطلع الشباب ومقتبل العمر. ولـمّا بلغ ابن سينا عشرَ سنين كان قد أتقن علم القرآن والآداب، وحفظ أشياء من أصول الدين، وحساب الهندسة والجبر والمقابلة[37]. ولذلك كانت عطاءاتهم غزيرة وافرة، ومستمرة طوال حياتهم.

**12- توجيه التلاميذ حسب مواهبهم**: عرف المسلمون في العصور الوسطى فكرة توجيه التلاميذ حسب مواهبهم. وكانت عمليّة التوجيه تبدأ بعد أن يجتاز التلميذ المرحلة الأولى للتعليم، والتي يتعلّم فيها طرفًا من العلوم الضرورية في الحياة، كالقراءة والكتابة والحساب، ويتجّه بعد ذلك إلى العلم أو الحِرفة، حسب استعداده وتكوينه «إذ ليس كلّ أحدٍ يصلح لتعلّم العلوم يصلح لجميعها»[38]. وينبغي للطالب ألاّ يختار نوع العلم بنفسه، بل يفوّض أمره إلى الأستاذ، لما له من تجارب في ذلك. «وعلى المعلّم أن يشخّص طبيعة المبتدئ من الذكاوة أو الغباوة، ويعلّمه على مقدار وسعه، ولا يكلّف الزيادة عن مقداره، فإنه إذا كلّف يئس من تحصيل العلم ويتّبع الهوى ويُشكل تعليمه».

أما التوجيه المهني عند الطالب فقد ذكره ابن سينا بدقة ووضوح حيث يقول: «ليس كل صناعة يرومها الصبي ممكنة له ومواتية، لكن ما شاكل طبعه وناسبه وأنه لو كانت الآداب والصناعات تجيب، وتنقاد بالطلب والمرام، دون المشاكلة والملاءمة، إذن ما كان أحد غفلاً من الأدب، وعاريًا من صناعته، وإذن لأجمع الناس كلهم على اختيار أشرف وأرفع الصناعات... ينبغي لمدير الصبي إذا رام اختيار الصناعة أن يزن أولاً طبع الصبي ويسبر قريحته ويختبر ذكاءه فيختار له الصناعات بحسب ذلك»[39].

وقد عبّر الإمام الغزالي في «الرسالة اللدنية» عن هذا التفاوت بقوله: «وإذا غلبت القوّة البدنيّة على النفس، يحتاج المتعلّم إلى زيادة التعلّم وطول المدة، وإذا غلب نور العقل على أوصاف الحسّ يستغني الطالب بقليل التفكّر عن كثرة العلم»[40].

**13- تكافؤ الفرص في التعليم**: لمّا كان المسجد هو المكان الأوّل الذي انطلق فيه التعليم، فقد كان مفتوحًا للجميع، للغنيّ والفقير على حدّ سواء. وكان المدرّس يعامل الفقيرَ معاملةَ الغنيّ. وقد ورد في [معجم الأدباء 282:6] «أنّ محمّدًا بن أحمد بن كيسان (299هـ) كانت له حلقة كبيرة في المسجد، وكان يجتمع، على باب ذلك المسجد، من الدواب للرؤساء والكتّاب والأشراف والأعيان الذين قصدوه، وكان إقباله على صاحب الرقعة الممزّقة والعباءة الخَلْقِ

والطّمر البالي، كإقباله على صاحب القصب والوشي والديباج والرَّكْب والحاشية الغاشية»[41].

ويقول الإمام الغزالي في الإحياء (1:47) «إنّه ليس الظلم في إعطاء العلم لغير المستحقّ، بأقلّ من الظلم في منع المستحقّ». وكانت عناية المدرّسين بتلاميذهم الفقراء تصل بهم إلى حد الإنفاق عليهم من مالهم الخاصّ[42].

حكى الإمام أبو يوسف قال: «كنت أطلب الحديث والفقه وأنا مقلّ رثّ الحال، فجاءني أبي يومًا وأنا عند أبي حنيفة، فانصرفتُ معه. فقال: يا بنيّ لا تمدّ رجلك مع أبي حنيفة، فإنّ أبا حنيفة خبزه مَشويّ، وأنت تحتاج إلى المعاش، فقصّرت عن كثير من الطلب، وآثرت طاعة أبي. فتفقّدني أبو حنيفة، رضي الله عنه، وسأل عنّي. فَعُدْتُ إلى مجلسه. فلمّا كان أوّل يوم أتيته بعد تأخّري عنه، قال لي: ما شغلك عنّا؟ قلت الشغل بالمعاش وطاعة والدي، فجلست. فلمّا انصرف الناس، دفع إليّ صرّة وقال استمتع بها. فنظرت، فإذا فيها مائة درهم. وقال لي: الزم الحلقة، وإذا فَرَغَتْ هذه فأعلمني، فلزمتُ الحلقة، فلما مَضَتْ مدّة يسيرة دفع إليّ مائة أخرى ثم كان يتعهّدني حتى استغنيتُ وتموّلتُ»[43].

**14- التنظيم الإداري والشروط الوظيفيّة:** كان معلّم الكتّاب أشبه ما يكون بالمعلّم المنفرد في أيامنا، لكنّه كان يتصرّف ضمن لوائحَ وإرشادات معيّنة، لا يحقّ له الخروج عنها. «وقد تحرّى ولاة الأمور جهدهم في انتخاب المعلّم الذي يتولّى تعليم صبيانهم، فلا يختارون لهذه المهمّة إلا من تقرّرَ عندهم حسنُ أخلاقه، وتوافرت فيه خصال رشيدة جمّة، منها الاشتهار بالاستقامة والعفاف، والعدالة مع الخبرة العامّة بالقرآن وعلومه. وقد وضع الفقهاء المسلمون خصالاً ينبغي توافرها في معلّم الكتّاب، فالقابسيّ يرى أنه ينبغي أن يكون مهيبًا، لا في عنف، ولا يكون عبوسًا مغضبًا، ولا مبسطًا، مرفقًا بالصبيان دون لين، وينبغي أن يخلص أدب الصبيان لمنافعهم»[44].

وقد أنيطت مهمّة الإشراف على معلّم الكتّاب بالمحتسب (المفتّش)، فاشترط لهذا المعلّم أن يكون من أهل الصلاح والعفّة والأمانة، حافظًا للكتاب العزيز،

حسن الخطّ، ويدري الحساب، والأوْلى أن يكون متزوّجًا...

أمّا التعليم في الكتّاب، فقد قام الفقهاء بمحاولات تنظيمه قدر الإمكان، وأخضعوا الكتاتيب لشروط موحّدة، بالإضافة إلى ما كانت تقوم به الدولة من الإشراف عليها، وعلى أنظمتها من خلال المحتسب ومراقبته إيّاها، والذي له الحقّ أن يمنع من لم تتوافر فيه الشروط اللازمة من ممارسة المهنة.

وكانت الحياة في الكتاتيب «فطريّة في الغالب» وأوقات الدراسة فيها تحدّد بعلامات طبيعيّة، فشروق الشمس كان بدء اليوم الدراسّي، يطول ويقصر تبعًا لشروق الشمس وأذان العصر[45]. وأمّا بالنسبة إلى الراحة والعطل المدرسيّة، فقد لوحظ اهتمام المسلمين بإعطاء الصبيّ قسطًا من الراحة، بعد عناء الدراسة. فهذا ابن الحاج العبدري (ت 737هـ/1336م) يقول: «إنّ ذلك مستحبّ، لقوله عليه الصلاة والسلام: «روّحوا القلوب ساعة وساعة»، فإذا استراحوا يومين في الجمعة، نشطوا لباقيها. وهنالك تعطيل في أيّام الأعياد وحالات المرض، والرياح والعواصف والبرد والمطر الشديد».

وإذا تغيّب المعلم لأمر طارئ «فعليه أن يستأجر للصبيان من يكون فيهم بمثل كفايته»[46].

**15- حلقات التعليم**: درج المسلمون على تعليم الأولاد في حلقات، تضمّ عددًا من الصبية «لأنّ الصبيّ عن الصبيّ ألقن، وهو عنه آخذ وبه آنس» كما يقول ابن سينا[47]. حتى إنّ الخلفاء كانوا لا يكتفون باستدعاء المربّين لأولادهم في القصور، بل كانوا يرسلون معهم الأولاد لينضمّوا إلى حلقات العلم ويستمعوا معهم إلى الدروس. وكان عدد طلاب الحلقات في المسجد غير محدّد، فالتعليم في المسجد مفتوح للجميع، وكانت بعض الحلقات تضم مئات الطلاب.

أمّا في المدارس، فكان العدد محدودًا، يتراوح بين 20 و75 طالبًا للعلم، مع بعض الاستثناءات، كالمدرسة النظاميّة بنيشابور التي كانت تضمّ ثلاثمئة طالب. وكان ذلك التجاوز في المراحل العليا من التعليم، أمّا في المراحل الأولى، فقد كان على المدرّس أن يعلّم عددًا محدودًا من الصبيان، لأنّه إذا كثر العدد

فلن يستطيع أن يعلّمهم شيئًا على ما ينبغي. ويجلس الشيخ أو المعلّم على منصة صغيرة، ويكون ظهره إلى الحائط، ويكوّن الحضور حلقة أمامه، يكون هو في أبرز نقطة في محيطها، ويجلس المستمعون في حلقة في ترتيب معيّن، لكلّ طبقة منهم مكان معلوم، فيجلس المعيدون والممتازون إلى اليمين واليسار، ويجلس الرفقاء، في درس واحد، في جهة واحدة من الحلقة، ليكون نظر الشيخ إليهم جميعًا، ويُترك في الحلقة فراغ، ليجلس فيه من يحبّ أن يستمع إلى الدرس، من الذين لا يحضرون الدروس بانتظام.

وإذا كان المدرسّ يلقي من محفوظاته أو من مذكّرات كتبها، فإنّ الدرس يسمى إملاءً، ويكتب الطلاب خلف المدرّس ما يمليه. فإذا ما انتهى عرّج بالشرح والتفسير، فيدوّن الطلاب هذه الشروح على هامش الأوراق التي كتبت عليها الأصول. وكانت لهذه الشروح أهمّية كبيرة، يسافر لها الطلاب مسافات طويلة ويتحملون من أجلها المشقّة والجهد.

«وممّا يروى في هذا المجال، أنّ الغزالي سافر من طوس إلى جُرَجان ليستمع إلى الإمام أبي نصر الإسماعيلي، وقد علّق عنه تعليقات مفيدة، ثم رجع إلى طوس، وفي طريق العودة، يقول الغزالي، قُطعتْ علينا الطريق، وأخذ العيّارون جميع ما معي ومضوا، فتبعتهم، فالتَفَتَ إلي مقدّمهم، وقال: ارجع، ويحَك، وإلا هَلَكْتَ. فقلتُ له: أسألكَ بالذي ترجو السلامة منه، أن تردّ علي تعليقتي فقط، فما هي شيء تنتفعون به. فقال: وما هي تعليقتك؟ فقلتُ: كتبٌ في تلك المخلاة هاجرتُ لسماعها وكتابةِ تعليقات عليها. فأمر بعض أصحابه فسلّم إليّ المِخلاة»[48].

**16- مراحل التعليم**: اتّبع المسلمون، في العصور الوسطى، ثلاث مراحل، كما ذكرها ابن خلدون في مقدمته، حيث يقول: اعلم أن تلقين العلوم للمتعلّم إنّما يكون مفيدًا إذا كان على التدريج، شيئًا فشيئًا، وقليلاً قليلاً، يُلقي عليه أوّلاً مسائل من كلّ باب من الفنّ، هي أصول ذلك الباب، ويقرّبُ له في شرحها على سبيل الإجمال، ويراعي في ذلك قوّة عقله، واستعدادَه لقبول ما يرد عليه، حتى ينتهي إلى آخر الفنّ، وعند ذلك يحصل له مَلَكَةٌ في ذلك العلم، إلا أنّها

جزئيّة وضعيفة، وغايتُها أنّها هيّأته لفهم الفنّ وتحصيل مسائله. (وهذه هي المرحلة الابتدائيّة في مفهومنا اليوم).

ثم يرجع إلى الفنّ ثانية، فيرفعه في التلقين عن تلك الرتبة إلى أعلى منها، ويستوفي الشرح والبيان، ويخرج عن الإجمال، ويذكر له ما هنالك من الخلاف ووجهه إلى أن ينتهي إلى آخرَ فتجود مَلَكَته. (وهذه هي مرحلة التعليم المتوسّط والثانوي) ثم يرجع به ثالثًا، وقد شدا فلا يترك عويضًا ولا مهمًّا ولا مغلقًا إلا وضّحه، وفتح له مقفله فيخلص من الفنّ، وقد استولى على مَلَكَته. (وهذه هي مرحلة التعليم الجامعيّ، وما فيها من أبحاث علميّة)[49].

أما الدكتور فريد جبرائيل نجار فيفصّل المنهاج المتّبع في كلّ مرحلة من مراحل التعليم المذكورة على الشكل الآتي:

**المنهاج الابتدائي**: يدخل الولد حوالي سنّ السابعة «الكتّاب»، أي المدرسة الابتدائية، حيث يحفظ القرآن الكريم، وينهيه حوالي التاسعة من عمره. وعليه أن يحفظه ويرتّله بدقة في اللفظ، وإنّ أبسط خطإٍ يعرّضه للرسوب. ولا يخفى ما يتطلّب ذلك العمل من قوّة ذاكرة ودقّة وتدريب.

ويتضمّن المنهاج الابتدائي درسًا في الخطّ الذي توجّه عناية خاصّة لتعليمه. وإلى جانب ذلك كان الولد يحفظ كثيرًا من الشعر والأمثال التي كانت تستعمل كنماذج يستنسخها التلميذ لأجل تعلّم الخطّ. وتضمن هذا المنهاج أيضًا مبادئ الحساب، وتمتدّ الدراسة فيه سنتين أو ثلاثًا، بعد إنهاء القرآن الكريم، يتابع خلالها التلميذ درس الحساب والقواعد والأدب واللغة والدين.

وهكذا نجد أنّ مدّة الدراسة، في المدرسة الابتدائية، كانت تبتدئ في السابعة، وتمتدّ حوالي خمس سنوات منتهية في الثانية عشرة من عمر الولد.

**المنهاج الحرّ (الثانوي)**: وهذا هو القسم الرئيسيّ من المنهاج ونودّ تسميته «المنهاج الحرّ» كما يمكننا تسميته «منهاجًا دينيًا» لأنّه كان، ككلّ مناهج التعليم في العالم، في القرون الوسطى، مشحونًا بالتعليم الديني. وفي نظرنا اليوم، إنّ منهاجًا دينيًّا من هذا النوع، يمكن تسميته منهاجًا حرًّا Liberal، لأنّه يؤمّن ثقافة ثانويّة عامّة، ولا يوجّه نحو تعلّم حِرفة أو صنعة.

كان هذا المنهاج يشبه، إلى حدّ بعيد، المناهجَ المتّبعة في المدارس الألمانيّة الثانويّة اليوم، أو مناهج الليسّيه الفرنسيّة، أو المدرسة الإنكليزيّة اليوم. ويضمّ منهاج المدرسة العربيّة أو الكلية العربيّة، المستوى نفسه الذي يطلب اليوم من منهاج البكالوريا الأوروبيّ، فيضمّ الأدب و«الدين» و«المنطق» و«الحساب» و«الجبر» و«الهندسة» و«الفلك»، بالإضافة إلى القرآن الكريم والفقه والشعر والتاريخ و«الجدل» و«علم الكلام» والفيزياء والفلسفة.

وقد صنّفت الدروس في المنهاج العربيّ في بابين رئيسيّين، كما صنّفت الدروس، في منهاج القرون الوسطى في أوروبة في بابين أيضًا «الثلاثيّ» أو «الثلاثيّات» و«الرباعيّ» أو «الرباعيّات». أمّا البابان العربيّان فهما «العلوم النقليّة» (الحديث أو العلوم الإنسانيّة) و«العلوم العقليّة». ويضع ابن خلدون في الباب الأول، أيّ العلوم النقليّة: القواعد والتفسير والحديث والفقه؛ ويضع في الباب الثاني، أي العلوم العقليّة: المنطق والعلوم الطبيعيّة والماتافيزيقا (أي ما بعد الطبيعة) والموسيقى والحساب والهندسة والفلك، لذلك سمّينا هذا المنهاج حرًّا، لأنّه كان يضمّ الأدب والدين والرياضيّات والفلسفة وبعض عناصر العلوم. هذا هو المنهاج الذي تمشت عليه المدارس العربيّة، وقد قام بتدريسه أساتذة قديرون.

**المنهاج العلمّي (العالي)**: وقد ضمّ هذا المنهاج درس الطبّ، والكيمياء والفيزياء والرياضيّات، وعلم الفلك والفلسفة وما بعد الطبيعة والموسيقى، وكان يقوم بتدريسه علماء معروفون، وكان الطلاّب يقصدون العالِم (الأستاذ) للدرس عليه، وليس المعهد أو المؤسّسة، ولم يُعرف من المعاهد إلاّ بيت الحكمة في بغداد، ودار العلم في القاهرة، حيث نظّمت هذه الدروس بمنهاج علميّ متقَنِ التنظيم. ومن مميّزات التربية عند العرب، أنّها لم تَدُر حول «معهد»، بقدر ما دارت حول معلّم. وقد قصد التلاميذ الأساتذة المشهورين للدرس عليهم، وكانت الإجازة (الشهادة) تحمل اسم الأستاذ وليس اسم المعهد.

أمّا الطبّ، فقد درّس في المستشفيات وتحت رعاية الأطبّاء «ليمكن التطبيق العمليّ للنظريّات العلميّة الطبيّة، التي يلقيها الأساتذة على الطلاب، وعلى

هذا كان بالمستشفى إيوان (قاعة محاضرات) ليستمع فيه الطلاب إلى الدرس، ثمّ ينسابون بين المرضى ليروا الأمراض وليعالجوها بإشراف أساتذتهم، ويَروي ابن أبي أُصيبِعة أنّ الطبيب أبا المجد بن أبي الحكم المتوفّى سنة... وخمسمائة (هكذا) كان يتردّد إلى البيمارستان الكبير الذي أنشأه الملك العادل نور الدين محمود في دمشق، فيأتي ويجلس في الإيوان الكبير الذي للبيمارستان، ويحضّر كتب الاشتغال... وكان جماعة من الأطبّاء والمشتغلين يأتون إليه، ويقعدون بين يديه، ثم تجري مباحثات طبّية ويقرئ التلاميذ، ولا يزال في اشتغال ومباحثة ونظر في الكتب مقدارَ ثلاث ساعات. ومثل ذلك حصل في البيمارستان المنصوريّ بالقاهرة، حيث كان يجلس رئيس الأطبّاء في مكان معيّن ليحاضر في الطبّ»[50].

**17- طرائق التعليم**: كانت طريقة الإلقاء أو المحاضرة هي المتّبعة في التدريس، حيث يلقي الأستاذ المحاضرة على تلاميذه، وهم يتحلّقون حوله. ويأتي التلميذ والمعلّم باللباس الأكاديميّ الرسميّ «الجبّة والعمامة» وعلى المعلّم أن يطبّق بدقّة أشدّ، قواعدَ الوقار والنظافة والحشمة والسلوك، فلا يمكنه أن يتساهل أو أن يخرج من الرسميّات. عليه أن يجلس مستقيمًا دون أن ينحني، أو يلفّ رجلاً على الأخرى، أو يمزح أو يرفع صوته. عليه أن ينظر إلى عمله بجدّيّة تامّة، ويطلب إلى التلميذ السلوك والتصرف نفسه.

يجلس المعلّم مستندًا إلى عمود الجامع أو المعهد، ويجلس التلاميذ حوله بحلقة أو حلقات، كلّ بيده كتاب مفتوح. يبدأ المعلم بدعاء قصير، ثمّ يباشر إلقاءَ محاضرته، فيقرأ ويفسّر ويشرح، ويطرح عليه التلاميذ الأسئلة، ويدور نقاش بينهم وبين المعلّم. ينتهي الدرس، فيقوم كلّ من التلاميذ ويقبّل يد المعلم ثمّ يذهب، بينما يبقى المعلّم جالسًا يقرأ.

أو قد يجلس المعلّم على منبر ويحيط به التلاميذ في حلقات، ثم يبدأ محاضرته، أو يقرأ ويفسّر ويوجّه إليه التلاميذ الأسئلة، ويدور بينهم النقاش. وكثيرًا ما يخالف التلميذ رأي أستاذه ويجادله، شرط أن يدافع عن وجهة نظره بتأدّب وحشمة. وكان الأستاذ يتقبّل ذلك، لا بل يشجّعه. وعلى الرغم من أنّ المعلم العربيّ كان

يسيطر على عقل تلميذه، إلاّ أنّ هذه السلطة كثيرًا ما تحدّاها التلميذ، ولجأ إلى تفكيره الخاصّ واستقلاله الفكريّ. وبهذا، يؤكّد المعلّم العربيّ، ضمنًا، اعترافه بجهله، حين لا يستطيع أن يعرف الجواب عن سؤال ما. وقد عرف عند العرب: «إن من يقول: لا أعرف، عندما لا يعرف، قد بلغ نصف المعرفة»، وكان أحد الفقهاء يقول: إن «لا أدري» من العلم.

**الإملاء:** نظرًا إلى عدم توافر الكتب قبل الطباعة، كان على الأستاذ أن يُملِي محاضرته على الطلاّب ببطء لكي يكتبوها، وكانت ركبة التلميذ هي الطاولةَ التي يكتب عليها. ولـمّا كانت عمليّة الإملاء هذه متعبةً بالنسبة إلى الأستاذ، كان له معيد أو أكثر، يعاونه في ذلك. وقد وصف ابن بطّوطة محاضرة شهدها، تعطى في المدرسة المستنصريّة في بغداد، قال: «جلس الأستاذ مرتديًا ملابسه السود، وجلس عن يمينه معيد، وآخر عن يساره، يملي محاضرته على تلاميذه، ويعيد من بعده المعيد، مرّة هذا ومرّة ذاك».

**18- بين الحفظ والفهم والتحليل:** كانت الطريقة العربية تعتمد كثيرًا على تدريب الذاكرة وتقويتها، وذلك بالإعادة والتكرار، واستخدامها استخدامًا وافرًا. وقد قال أحد الكتّاب عن طريقة التعليم... «إنّ ما تعلّمه الولد بالأمس يجب أن يعاد خمس مرّات، وما تعلّمه أوّل من أمس يجب أن يعاد أربع مرّات، وما تعلّمه قبل ذلك بيوم يجب أن يعاد ثلاث مرّات».

ولم تُهمِل الطريقة العربيّة التفكير والتدريب عليه، فأوصى المربّون الأساتذة بأن يلقوا محاضراتهم ببطء، لكي يُفسحوا في المجال أمام التلميذ للتفكير والتأمّل. وقد ميّز المعلّمون العرب بين «الحفظ» و«الفهم» في «عملية التعليم» وسمّوا «الفهم» أو «التمثّل» (أي الهضم) مَلَكَة (بمعنى القدرة) وفي رأيهم، أنّ التلميذ لا يستطيع أن «يفهم» أو «يتمثّل» المعرفة بالذاكرة الجيدة وحدها، ويظهر ضعفه هذا حالما يشترك في النقاش والجدل. إنّ مقدّمة ابن خلدون حافلة بأمثلة، عن ضرورة التعليم الذكيّ الواعي، حيث يجب أن يُطلب إلى التلميذ توجيهُ الأسئلة إلى الأستاذ، والدخولُ في النقاش والجدل معه، ومخالفتُه الرأي إذا اقتضى الأمر. ولا ريب في أن هذا النوع من التعليم، يجب أن يعتمد

على تدريب التفكير وتمرينه وتقويته. يقول «الزرنوجي»: «إن قيمة النقاش أكبر بكثير من الإعادة والتكرار» ثم يقول: «يجب أن يُفكّر التلميذ، حتى حين يعالج أبسط أنواع المعرفة، لأنّه كما قيل: فكّرْ تفهمْ». ثم يقول: إنّ التأمّل والتفكير والهدوء، أمور ضروريّة في النقاش، تعادل شهرًا من الإعادة.

وقد أكّد المعلّمون العرب بطريقتهم الدقّيَة، فكانت من مميّزات طريقتهم التي حقّقوها بوسائل شتّى، وأحيانًا كانت هذه الوسائل ميكانيكيّة (آليّة). وقد أكد المربي الغزالي أهميّة الدقّية في التعليم والعمل التحليليّ الدقيق، وأكّد الزرنوجي الدقّةَ أيضًا بقوله: «لا يجوز للعالِمِ أن يترك كتابًا قبل أن يُنهيَه، أو أن يبدأ موضوعًا جديدًا، قبل أن يُنهيَ الموضوع الذي بين يديه».

**19- السفر في طلب العلم**: جاء في الحديث الشريف: «اطلبوا العلم ولو في الصين» وبديهي أن المقصود بالعلم هنا هو العلوم الدنيوية، لأن العلوم الشرعية غير متوفرة في الصين! هذا، ولم يكن السفر في طلب العلم مقصورًا على المتعلّمين، فالعلماء كانوا يسافرون للاستزادة من العلم، وكان الإنفاق على طالب العلم، في سفره، يأتي دائمًا من أهل الحضر، فقد لاحظ ابن بطّوطه أن أصحاب كلّ حِرفة ينزلون ضيوفًا على أصحاب الحرفة نفسها، في البلاد الأخرى. وكان ابن بطّوطه يخرج لرحلاته بمال قليل بسبب فقره، ولكنّ ترابط الأمّة الإسلاميّة وقوّة وحدتها وتآخيها كانت كافيةً لتغطية نفقات رحلاته وتنقّلاته ومأكله ومشربه.

أمّا الفيروزابادي، أحد أئمّة اللغة والأدب، فقد عُرف عنه أنّه كان يسافر من بلد إلى بلد، وبصحبته عدّة أحمال من الكتب، يخرجها في كل منزلٍ ينزله، ينظر فيها، ويعلّم الناس منها. كما يروى عنه، أنّه كان يشتري في سفره، أحيانًا، بخمسين ألف مثقالٍ ذهبًا، كتبًا جديدة.

ويقول الشعبي: «لو أنّ رجلاً سافر، من أقصى الشام إلى أقصى اليمن، ليسمع كلمة حكمة، ما رأيت أن سفره ضاع».

ويقول ابن خلدون في مقدمته: «الرحلة في طلب العلوم مفيدة، لأنّ البشر يأخذون معارفهم وأخلاقهم، تارة علمًا وتعليمًا وإلقاءً، وتارة محاكاةً وتلقينًا

بالمباشرة. إلاّ أنّ حصول المِلَكات، عن المباشرة والتلقين، أشدّ استحكامًا وأقوى رسوخًا، والرحلة تفيد كثرة الشيوخ، وعلى قدر كثرة الشيوخ يكون حصول الملكة رسوخًا، فتعدّد المشايخ يفيد تعدّد الطرائق، إذ إنّ لكلّ منهم طريقته في التعليم»[51].

**20- تعليم الإناث والذكور**: يقول عليّ بن نايف شحود، في كتابه «الحضارة الإسلاميّة»[52]: «يبدو أنّ التعليم الإبتدائيّ، لم يكن مختصًّا بالصبيان الذكور دون الإناث، بل إنّه كان شاملاً للجنسين، لا سيّما عند الأغنياء وأصحاب المناصب العالية والعلماء» فهذا القاضي الورع، عيسى بن مسكين، المتوفّى سنة (275هـ 888م) كان يُقرئ بناته وحفيداته. قال عياض: «وكان من سيرة عيسى بن مسكين، في غير مدّة قضائه، أنّه كان إذا أصبح قرأ حزبًا من القرآن، ثم جلس للطلبة إلى العصر، فإذا كان بعد العصر، دعا بنيه وبنات أخيه يعلمهنّ القرآن والعلم»[53].

أما ابن حزم القرطبي فيعترف للنساء بفضلهن العلمي عندما يقول: «ولقد شاهدت النساء، وعلمتُ من أسرارهنّ، ما لا يكاد يعلمه غيرهنّ، لأني رُبّيت في حجورهنّ، ونشأت بين أيديهنّ، ولم أعرف غيرهنّ، ولا جالست الرجال، إلا وأنا في حدّ الشباب، وقد تبقّيل وجهي، وهنّ علّمنني القرآن، وروينني كثيرًا من الأشعار، ودرّبنني في الخط»[54].

ويبدو أنّ بعض الصبيان كانوا يستمرّون في الكتّاب إلى سن البلوغ، ولهذا كان يُخشى على الإناث من الفساد. لكنّ ذلك لم يمنع البنات من التعليم، وإنما منع اختلاطهنّ بالذكور، انطلاقًا من الغيرة على الأخلاق، وحفظ الدين؛ وأكبر دليل على انتشار التعليم بين الإناث، تلك الأعداد الكبيرة من النساء الفقيهات، والشاعرات، والكاتبات...»[55].

ورغم ذلك، لا يجوز القول إن التعليم كان منتشرًا بين الإناث، انتشاره بين الذكور. فقد كانت نسبة المتعلمات بين النساء أقل بكثيرٍ جدًا من نسبة المتعلمين بين الرجال، رغم أن الدين الإسلامي، لم يجعل الجنس عائقًا للمرأة دون تلقي العلم.

وحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم في هذا المجال، واضح ولا يقبل أي تفسير آخر أو تأويل مختلف، حيث يقول: «طلب العلم فريضة على كل مسلم» والمراد بالمسلم في الحديث، الإنسان المسلم رجلاً كان أو امرأة. وقد أجمع المفسرون على أن الحديث يشمل كل مسلم ومسلمة وإن لم يرد لفظ «ومسلمة» في رواية الحديث. وربما يعود سبب تراجع نسبة المتعلّمين إلى أن البنات لم يلتحقن بالكتّاب بعد سن البلوغ بل كان الغالب أن تتعلم البنات في المنزل عن طريق أحد أقاربها أو مؤدبٍ خاص يدعى لها، كما أن الصعوبات التي كانت تلحق بطالب العلم من سفرٍ وحرمانٍ ومشقة وتقشف كانت من المعوقات في تعلّم الإناث، إذ كان العرب يضعون المرأة في مكانة أسمى ومنزلة أعلى، فلا يرغبون لها أن تتعرض لنصب العيش وشظف الحياة ومشقة السفر.

**21- علاقة التعليم بسوق العمل:** كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعو ربه، فيقول: «اللهم علمنا ما ينفعنا، وانفعنا بما علمتنا، وزدنا علما» ويقول أيضًا: «اللهم إني أسألك علمًا نافعًا...». من هذين الدعاءين يستنبط علماء الحديث، أن العلم الذي لا يستغنى عنه في قوام أمور الدنيا، هو فرض كفاية، أي أنه يجب أن يكون في المجتمع الإسلامي من يتقنه، كما ذكرنا في الفصل الأول من هذا الباب. لذلك كان طلب العلم ينطلق، أصلاً من الحاجة المباشرة إليه في المجتمع العربي الجديد.

ومما زاد في هذا الترابط الوثيق بين التعلم والنفع المباشر في تلبية الحاجات الإنسانية، هو أن تلقي العلوم على اختلافها، وخصوصًا في المراحل المتقدمة منها، كان يجري بين الأستاذ العامل عادة في مجال علمه، وطالب العلم مباشرة، فكانت العلوم الطبية، تدرّس في البيمارستانات، وعلوم الفلك في المراصد الفلكية، وعلوم الكيمياء في المختبرات. وفيها جميعًا قاعات كبيرة خصصت للتعليم. وهذا ما يسمح بدوره لطالب العلم بمواكبة العمل في المجال المباشر لتعليمه، وأن يشارك أساتذته وأقرانه في البحث والتمحيص في المستجدات العلمية والعملية في آن واحد.

**22- التعليم المفتوح:** كان الطالب يبدأ تعليمه بعد الكتّاب عندما يرغب، وفي

السن التي يريد، هو أو أهله، فينهل من العلوم والمعارف كما يشاء، وينتقل بين حلقات التعليم هنا وهناك، وقد يترك بلده إلى آخر في طلب العلم، إذ لا يُفرض عليه علوم محددة في سنوات معلومة، أو في مكان محدد. وهو الذي يختار أستاذه وشيخه، وقد يتركه لينتقل إلى أستاذ آخر، لا شيء يدفعه إلى ذلك سوى حب العلم وطلبه والإقبال عليه.

والعلماء لا يقلّون حرية عن الطلاب، فهم الذين يحددون المناهج المقررة ووقت الدراسة وعدد المحاضرات في اليوم أو في الأسبوع، وهم الذين يعطون الطلاب إجازاتهم العلمية.

ولعل هذا أحدث ما وصلت إليه نظم التعليم المعاصر في ما يسمى بالنظم التعليمية المفتوحة، وعليها تنطبق أيضًا بعض نظم التعلم الإلكتروني والتعلّم online.

**23- نشر المعرفة**: حضّ الإسلام على نشر العلوم والمعارف بين الناس جميعًا، وكما كان على العالِم أن يسعى إلى التعلّم باستمرار، كان عليه أيضًا أن يعلّم الآخرين، امتثالاً لحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم في قوله: «من كتم علمًا عن أهله ألجمه الله بلجام من النار يوم القيامة» وقد عاقب الله عز وجل، علماء بني إسرائيل على كتمان العلم.

ثم إن النبي عليه الصلاة والسلام قال: «رُبّ مبلّغ أوعى من سامع». وقد قام علماء المسلمين بذلك خير قيام فكانوا كما يطلبون العلم ويحرصون على التزود به باستمرار، كانوا يعملون على نشره بين الناس على أوسع نطاق، وكانوا يقولون: «حقوق العلم خمسة: الاستماع، الفهم، الحفظ، العمل، النشر».

وفي كتاب «الترغيب والترهيب» يورد الحافظ المنذري عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه خطب ذات يوم، فحمد الله وأثنى عليه، ثم ذكر طوائف من المسلمين فأثنى عليهم خيرًا، ثم قال: ما بال أقوام لا يُفقّهون جيرانهم ولا يعلّمونهم؟! ولا يفطّنونهم ولا يأمرونهم ولا ينهونهم؟ وما بال أقوام لا يتعلّمون ولا يتفقّهون ولا يتفطّنون؟! (56)

والله ليعلمنّ قومٌ جيرانهم، ويفقّهونهم، ويفطّنونهم، ويأمرونهم وينهونهم.

وليتعلّمنّ قوم من جيرانهم، ويتفقّهون ويتفطّنون، أو لأعاجلنّهم العقوبة في الدنيا.

ثم نزل فدخل بيته، فقال قومٌ: من ترونه عنى بهؤلاء قالوا: نراه عنى الأشعريين، هم قومٌ فقهاء، ولهم جيرانٌ جفاةٌ من أهل المياه والأعراب (أي من سكان البادية).. فبلغ ذلك الأشعريين، فأتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقالوا: يا رسول الله، ذكرتَ قومًا بخيرٍ، وذكرتنا بشرٍّ فما بالنا؟

فقال: ليفقّهنَّ قومٌ جيرانهم، وليفطننّهم وليأمرنّهم، ولينهونّهم، وليتعلّمنّ قومٌ من جيرانهم ويتفطّنون، ويتفقهون، أو لأعاجلنّهم العقوبة في الدنيا. فقالوا يا رسول الله أنفطّن غيرنا؟ فأعاد قوله عليهم: فأعادوا قولهم: أنفطّن غيرنا. فقال ذلك أيضًا. فقالوا أمهلنا سنة، فأمهلهم سنة ليفقّهوهم ويعلّموهم ويفطّنوهم. ثم قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الآية: **(لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ * كَانُوا لاَ يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ) [المائدة: 78–79]**[57].

**24– جودة التعليم**: أمر الإسلامُ بالإحسان في العمل، وحضّ الإنسانَ على أن يقدّم دائمًا «أحسن» ما في استطاعته، وقد ورد ذلك في عدد كبير من الآيات القرآنية، منها:

**(... لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ...)** [النحل: 30] و[الزمر: 10].

**(... وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ)** [البقرة: 195].

**(إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لأَنْفُسِكُمْ...)** [الإسراء: 7].

**(أُولَئِكَ الَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا...)** [الأحقاف: 16].

كما أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالإتقان في العمل في قوله: «إن الله يحب إذا عمل أحدكم عملاً أن يتقنه».

وكذلك الإخلاص في النية كما في أداء العمل، مطلوب في الإسلام، فالمسلم الصادق مع ربه يحرص على أن يكون عمله صالحًا وخالصًا لوجه الله تعالى. وقد ورد في الحديث القدسي في ما يرويه رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ربه حيث يقول: «الإخلاص سرّ من أسراري أستودعه قلب من أحبّ»

والإخلاص في العمل يقوّي الإرادة ويصوّب العمل، ويجعله أكثر جودة.
والأسوة الحسنة في رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهو المعلّم الأول في الإسلام، جعلته، لجميع المعلمين من بعده، القدوة والمثال في جميع المجالات العملية والتعليمية من بلاغ وبيان وتطبيق وعلم ومعرفة وحكمة.
كل هذه الدلالات كانت تقوّي مفهوم الجودة الشاملة في التعليم، بالإضافة إلى ما ذكرناه سابقًا من خصائص وميزات كلها تشكل عناصر الجودة الشاملة في التعليم في عصر الحضارة الإسلامية.
من يتأمل جيدًا في خصائص التعليم في عصر الحضارة، يجدها جميعًا ترتكز على مبادئ وأسس أرساها الدين الإسلامي. كما يجد أن جميع العلوم والمعارف، الشرعية منها والعملية الحياتية، الحرفية منها والصناعية، توصل إلى الله والإيمان به، وتزيد الإنسان قربًا من ربه.

وإذا كانت العلوم الشرعية تزيد الإنسان معرفة مباشرة بالله تعالى، فإن العلوم العملية الحياتية تزيده قدرة على الحياة وتعينه على تطبيق شرع الله.

لذلك كان من الطبيعي أن لا نجد الفواصل والحواجز بين هذه العلوم على أنواعها، بل نجدها تتكامل فيما بينها عند رجال العلوم الشرعية كالغزالي وابن تيمية. وعند رجال العلوم العقلية كابن سينا وابن رشد وابن خلدون وغيرهم.

وبفضل ذلك، لم يكن التعليم في عصرهم مجرد تعليم من أجل المهنة، بل كان تعليمًا يصب في إطار النمو المتكامل للشخصية الإنسانية في مختلف أبعادها المعرفية والسلوكية وصولاً بها إلى معرفة الخالق عز وجل وعبادته وتطبيق شرعه وعمارة أرضه.

## المصادر والمراجع


1- القرآن الكريم.
2- ابن ماجه، السنن، ح(224)، 81/1.
3- الترغيب والترهيب من الحديث الشريف زكي الدين المنذري. تحقيق إبراهيم شمس الدين. دار الكتب العلمية. ط1.
4- الآداب الشرعية. فصل في حظر كتمان العلم وفضل التعليم وما قيل في أخذ الأجر عليه.
5- المدخل إلى السنن الكبرى. رواه ابن ماجه والترمذي وحسنه من حديث علي بن الحكم. مرجع رقم 5921.
6- سبل السلام الموصلة إلى بلوغ المرام. الإمام محمد بن اسماعيل الأمير الصنعاني. تحقيق محمد صبحي حسن حلاق. دار ابن الجوزي. المملكة العربية السعودية. ط2.1421هـ.
7- موقع المكتبة الإسلامية www.islamweb.net.
8- المرجع نفسه.
9- دولة السلاجقة. د. محمد علي الصلابي. دار المعرفة، بيروت، ط1، 2006م.
10- شمس العرب تسطع على الغرب. زيغريد هونكه. ترجمة فاروق بيضون وكمال دسوقي. منشورات المكتب التجاري، بيروت، ط1، 1964م.
11- المرجع نفسه.
12- قصة أقدم جامعة في التاريخ. أحمد الظرافي. مدونة سبيل الرشاد. Ahmedaldhurafi.maktoobblog.com
13- ويكيبديا. الموسوعة الحرة. فاس /Ar.wikipedia.org/wiki
14- مقالة «أول جامعة في التاريخ». تاريخ blogs.ksu.edu.sa/alkont/tag.
15- المرجع نفسه.
16- موقع «المعرفة». مقالة بعنوان: «جامعة القرويين» www.marefe.org.
17- الأزهر في ألف عام. د. أحمد محمد عوف. مجمع البحوث الإسلامية، الأزهر،

1982م.
18- الحضارة الإسلامية. ثوابتها وفضلها على الحضارة الإنسانية. د. عبدالحليم عويس. مكتبة الشروق الدولية، القاهرة، ط1، 2009م.
19- الموجز في تاريخ العلوم عند العرب. شاكر مولوي. دار الرشاد الإسلامية، الأزهر، 1982م.
20- م.س. شمس العرب تسطع على الغرب.
21- أثر العرب في الحضارة الأوروبية. عباس محمود العقاد. دار نهضة مصر للطباعة والنشر، ط3، 2005م.
22- موقع الجزيرة أون لاين.
23- www.saaid.net مكتبة صيد الفوائد. كتاب لـ علي بن نايف الشحود. بعنوان: الحضارة الإسلامية بين أصالة الماضي وآمال المستقبل.
24- المرجع نفسه.
25- إحياء علوم الدين. أبو حامد محمد بن محمد الغزالي. دار المعرفة، بيروت، 1982م.
26- عيون الأخبار. ابن قتيبة الدينوري. تحقيق يوسف الطويل ومفيد قميحة. دار الكتب العلمية، لبنان، ط1، 2009م.
27- محاضرات الأدباء ومحاورات القراء والبلغاء. الحسين بن محمد الراغب الأصفهاني. دار الأرقم. 1954م.
28- تاريخ التربية الإسلامية. د. أحمد الشلبي. دار الكشاف للنشر والطباعة والتوزيع، القاهرة، 1954م.
29- موقع www.ssnp.net. مقالة بعنوان: العبور إلى النهضة. للدكتور قصي.
30- الموجز في تاريخ العلوم عند العرب. شاكر مولوي. دار الرشاد الإسلامية، ط2، 1995م.
31- الفكر التربوي عند عبدالكريم بن محمد السمعاني. تحليل د. عبدالأمير شمس الدين. الشركة العالمية للكتاب، ط1.
32- أعلام تربية في الحضارة الإسلامية. أ.د. سعيد اسماعيل علي. دار السلام

للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة، ط1، 2008م.
33- العقد الفريد. أحمد بن عبد ربه الأندلسي. ج2.
34- تعليم المتعلم على طريق التعلم. الإمام برهان الدين الزرنوجي. المكتب الإسلامي، بيروت، ط2، 1996م.
35- نحو فقه ميسر معاصر. د. يوسف القرضاوي. مكتبة وهبة، القاهرة، ط2، 2008م.
36- كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون. حاجي خليفة. دار الكتب العلمية، لبنان، ط1، 2008م.
37- وفيات الأعيان وأبناء آخر زمان. أبو العباس أحمد بن محمد بن خلكان. تحقيق إحسان عباس. دار صادر، بيروت، 1977م.
38- تاريخ التربية الإسلامية. د. أحمد الشلبي. دار الكشاف للنشر والطباعة والتوزيع، القاهرة، 1954م.
39- www.islamweb.net. «مشكلات الشباب الحلول المطروحة... والحل الإسلامي».
40- الرسالة اللدنية، أبو حامد الغزالي. شركة الطباعة الفنية.
41- معجم الأدباء. 282:6.
42- م.س. إحياء علوم الدين. الإمام الغزالي. 47:1.
43- م. س. وفيات الأعيان. ابن خلكان. 451:2.
44- آداب المعلمين. محمد بن سحنون. تحقيق إبراهيم فؤاد. الدار التونسية للطباعة والنشر. 1979م.
45- التربية الإسلامية في القرن الرابع الهجري. عبد الغني عبود. دار الفكر العربي، ط1، 1998م.
46- موقع www.islamweb.net.
47- القانون. ابن سينا. مؤسسة المعارف للطباعة والنشر، ط1، 1998م.
48- م.س. إحياء علوم الدين. الغزالي. 2:1.
49- مقدمة ابن خلدون. عبد الرحمن بن خلدون. دار الكتب العلمية، لبنان، ط1،

2009م.
50- تاريخ التربية الإسلامية. د. أحمد الشلبي. دار الكشاف للنشر والطباعة والتوزيع، القاهرة، 1954م.
51- م.س. مقدمة ابن خلدون.
52- موقع www.saaid.net مكتبة صيد الفوائد. كتاب لـ علي بن نايف الشحود. بعنوان: الحضارة الإسلامية بين أصالة الماضي وآمال المستقبل.
53- الرسالة المفصلة لأحوال المعلمين وأحكام المعلمين والمتعلمين. أبو الحسن علي بن محمد بن خلف المعاقري القيرواني القابسي. الشركة التونسية للتوزيع، ط1، 1986م.
54- الجودة الشاملة في التعليم. د. رشدي أحمد طعيمة. دار المسيرة، عمان، ط1، 2006م.
55- موقع www.islamweb.net.
56- الرسول المعلم وأساليبه في التعليم. عبد الفتاح أبو غدة. مكتب المطبوعات الإسلامية، حلب.
57- المرجع نفسه.